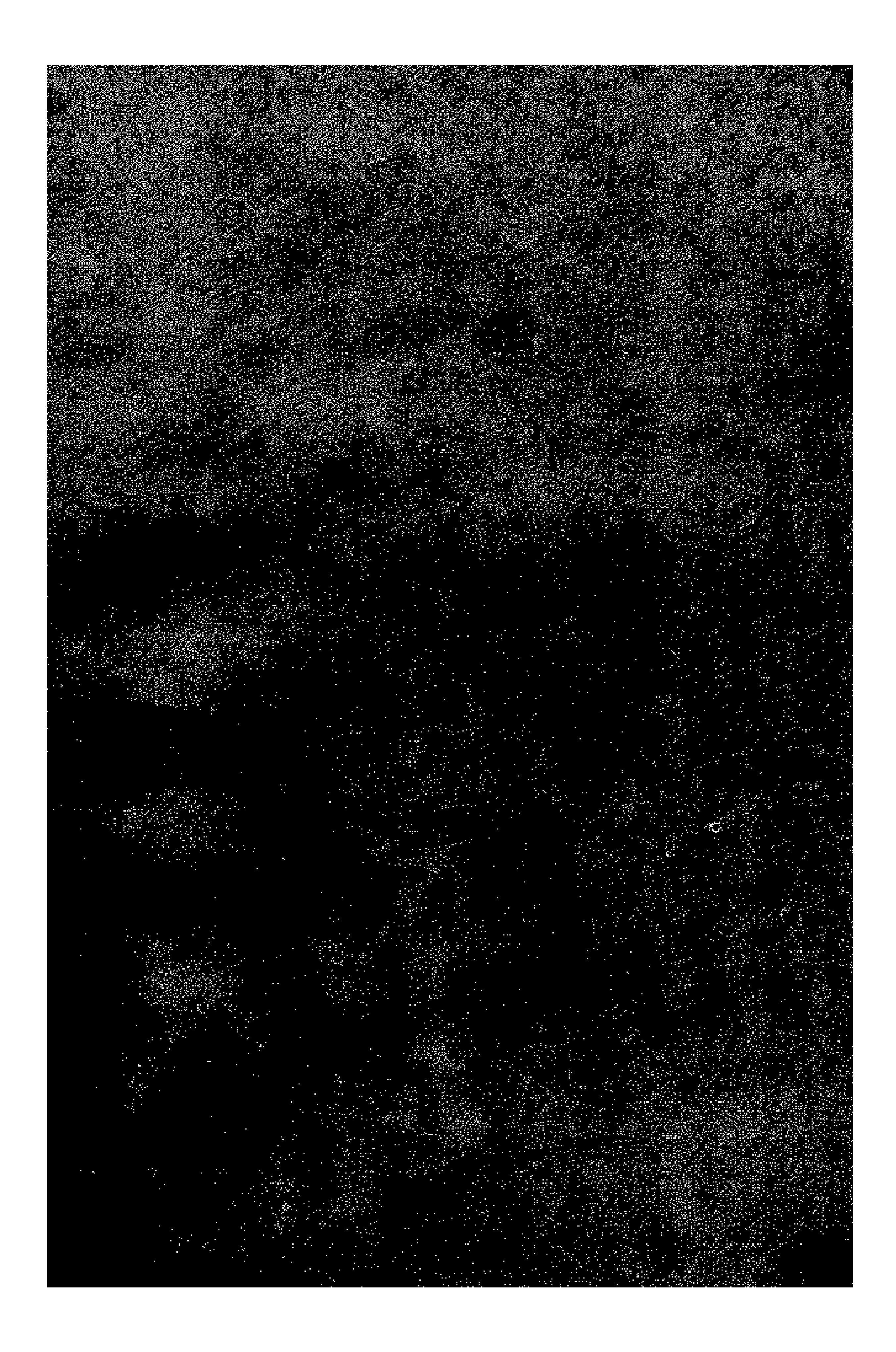
٣٢

تراب الميرى





مؤلفات يحيى حقي

تراب الميرى

اشرف على هذه الطبعة : فؤاد دوارة

يحيى حقى

تراب الميرى

المقالات الأدبية ٧



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

الاخــراج الفنى

انعــام صــالح

دوران قمر صناعي

منذ تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ (أى منذ قرابة نصف قرن) ، وبعد أن دفعت مصر باسراف يبلغ حد السفه المتطلب للحجر تعويضــات للموظفين الأجانب (من أول المستشار الى الكونستابل) ، لتخلو مقاعدهم لأبنــاء الوطن وأنــا أقرأ فى الصحف أخبار محاولات لاصلاح الأداة الحكومية ، وهى مسألة ذات شقين ، الأول : القضاء على عيوب الروتين ، والثانى : القضاء على تضخم الوظائف . ومن وراء هذه الجبهة تقبع مسألة أهم وأخطر وهى ربط المرتبات بمستوى المعيشة ، ولهذه المسائل ذرية كثيرة ــ كسبان القمل ــ منها مشكلة رقــابة الموظفين ،

مشكلة مراجعة حسابات الحكومة ، مشكلة التقاضى بين الموظف والحكومة ، مشكلة الترقية بالأقدمية أو الكفاءة ، مشكلة الكادر الخاص .. وغير ذلك كثير .

استقدمنا خبراء أجانب فقالوا هذه عقدة لا يحلها الا من عقدها ، واجتمعت لجان قدمت تقارير وضعت في الأدراج .

محاولات هى بمثابة نواة لتسند زيرا لا يمكن أن يستقر الا على دعائم ثابتة . فقد كان واضحا أن عوامل الافساد أضخم من الجهود المبذولة للاصلاح ، بدأت عوامل الافساد منذ اليوم الأول الذى تمصرت فيه الوظائف ، فقد كانت الشكوى ترتفع من الغلو فى مرتبات الموظفين الأجانب وانتفاعهم بمزايا عديدة ، كالسكن المجانى ، والاجازة خارج القطر ثلاثة أشهر ونصف فى كل عام ، وكان المفروض أن يختفى هذا الغلو وهذه الامتيازات فاذا بالموظفين المصريين قد جلسوا فى مقاعد الموظفين الأجانب بنفس المرتبات ، بنفس المزايا .

ثم جاء تعاقب الأحزاب على الحكم وحشدهم لأنصارهم فى وظائف الحكومة ، وأصيبت مصر فى ذلك العهد بعدد محترم من النوابغ الذين تفتقت أذهانهم عن درر لم تكن الا بمثابة قنابل زمنية وضعوها تحت شباك الحكومة ، مثل فكرة تسعير الشهادات لا الوظائف فرأينا من يشتغل تايبست ويقبض مرتب

دكتــور فى الآداب ، وفــكرة من هم فى الذكر ومن هــم فى النسيان .

ثم تلاحقت بعد ذلك عوامل الانفجار التعليمى والسكانى وارتفاع الأسعار ، وانتفاع المواطنين بأمومة الدولة لهم فزاد ابتعاد نظــام الوظائف عن الصــورة التى ينبغى أن تكون له ليصبح جهازا كفؤا قادرا على خدمة الوطن فى هــذه المرحلة الحاسمة من حياته ، واضح وضوح الشمس أن عدد الموظفين متضخم ، ويتضخم سنة بعد أخرى ، وأن هــذا التضخم يعرقل العمل ، انني أدخل بعض الوزارات والادارات فأخوض فى لحم بشرى متكدس عاطل ، وان هــذا التضخم يهدم أية نسبة معقولة بين تكاليف العمــل الانشائى وتكاليف القائمــين به ، فلا تستبعد أن تجد لادارة من الادارات ميزانية يذهب ثلاثة أرباعها أو أربعة أخماسها فى مرتبات الموظفين . يقال يصرف مليونا من الجنيهات لانشاء دكان كل البضاعة فيه لا تزيد عن ٥٠ ألف جنيه .

أعوذ بالله أن أكون من سلالة النبغاء الذين تحدثت عنهم من قبل ، ولكن هذه المسائل كلها تشغلنى لأنى أريد أن أغمض عينى وأفتحها فأرى بلدى قد تخلص من كل العراقيل ووثب الى الأمام ، فأسمح لنفسى أن افضفض ببعض الأفكار ولا أقول ببعض المقترحــات لأنى واثق أن كلامى لن تكون له نتيجــة

عملية . وأصدر عن الاعتقاد أن لب المشـكلة هو أننا ندفن كالنعامة رأسنا فى الرمل ولا نواجه هـذه المشاكل مواجهـة صريحة . واضح ـ فلماذا لا نرى ذلك ـ أن مرتبات الوظائف هى فى جانب كبير منها اعتمادات مالية كان ينبغى أن تدرج فى الميزانية بند الضمان الاجتماعى ، أى التأمين ضـد البطالة . هذا أول شيء ينبغى أن تفعله بشجاعة ، وليكن فعلنا هـذا هو الخطوة الأولى لدراسـة البطـالة فى مصر ـ بلا خوف ، فلا داعى ولا منطق أن نتحمل آثارها ونحن نجهل مصـادرها ، والاعتراف بالتأمين ضد البطالة بالنسبة للوظائف سيتبعه مكاسب كثيرة ، أولا تخفيض المدفوعات فان مبلغ التأمين ضد البطـالة لا يرتفع أبدا الى حد مرتب الوظيفـة . الفرق هو حسـاب الانتقالات والمظهرية لا ضير أن نجعل التأمين نصف المرتب ، ثم ان التأمين ثابت فلا يطلب صاحبه من الدولة علاوة ولا ترقية، لا مكتبـا ولا ورقا ولا تليفونا ولا ساعيـا . بذلك ننفى عن الوظائف تضخمها الذى يعرقل العمل . ومع اعترافى بمساواة المرأة للرجل وحقها فى العمل فانى أستسمحها اذا جرب عليها وقلت ان هـذا المبدأ الذى أنادى به أحق بالتطبيق عليهـا قبل الرجل . لنفعل هذا مع خريجات هذا العام . بل مع كل الشاغلات لوظائف كتابية أو ادارية تزيد عن حاجة العمل . كخطوة أولى .

وبقية الأفكار هى :

١ ــ تأجيل حل مشاكل الروتين الى أن نمضى قدما فى تنظيم كادرات الوظائف . فلا معنى لوضع لائحة لسوق لا نعرف فيه من هب ومن دب ، من شدة الزحام .

٢ ــ اللجــان المشكلة لبحث مسائل الوظائف والروتين ينبغى أن لا تقتصر على كبار أساتذة الجامعات أو كبار الموظفين، ينبغى تطعيمها بعدد ولو قليل من عتاة صغار الموظفين ــ ولو كانوا محــالين على المعاش ــ الذين عركتهم هــذه المشــاكل وعركوها .

٣ ــ الكف عن انتظار معجزة بالوصول الى حل شامل شاف ، حبذا لو بدأنا بمعالجة الجزئيات الصغيرة كلما ظهرت ، مثلا : فى ادارات كثيرة .

٤ ــ كادرات للعمال . عامل بمرتب شهرى . عامل بمرتب يومى مع الاجازة ، عامل بمرتب يومى بدون اجازة ، عــامل بالقطعة الخ .. الخ .. كل مدير ادارة ينبغى أن تعطى له سلطة لوضع كادر موحد لهؤلاء الموظفين الذين يقومون جميعا بعمل واحد . وهكذا .

وأنا الآن اذا وقعت عينى فى الصحيفة على أخبار اللجان المنعقدة لحل هــذه المشــاكل تغفو نظرتى لتوهــا ولا تقرأ شيئا ، لأنى فى الحقيقة زهقت من دوران هذه الأخبار دوران قمر صناعى حول الأرض ، ميقات وتكرار ، لا يتغيران .

(« التعاون » ، العدد ٢٤٣ ، ١٩٦٧/١٠/١٥ ، ص ١٠) .

عقدة العقد

لا أعرف عملا فنيا رائعا أخرجه عقل انسان مشوش مثل الجهـــاز الاداري للحـــكومة عندنا • لو جمعت أئمـــة المكر والخبث والدهاء من خبراء البرجلة والتناقض والتعقيد والابهام والغموض « وحاوريني يا طيطـــا » وطلبت منهم أن يدخنوا الجوزة حشيش كل صـــباح على الريق وأن يطلقوا لتفانينهم العنان وأن يعملوا بصبر وتأن وأسكنتهم تكية تحتهـــا ماخور لمـــا قدموا لك بعد عمر طويل الا مشروعا هيهـــات أن يفوق جهازنا في البراعة •

لقد وضع بعض المخلصين للثورة أيديهم على قلوبهم حين رأوا أن مهمة تنفيذ القوانين الاشـتراكية وأساسـها التأميم وقيام الحكومة بالانتاج والتوزيع .. قد أسندت أمانتها لهذا الجهاز العتيق .

لا يتسع لى المجال هنا والا كنت حدثتك (وربما فعلت يوما)عن تاريخ هذه المشكلة واكتفى بأن أوجزها لك فى المراحل التاليـة :

١ ـ عهد الاحتلال البريطانى : مصر بقرة تحلبها ولكن ينبغى أن تتركها واقفة على كوارعها توهم الناظر أنها حية وأن ورمها سمنة لا مرض النفخة الكدابة . نحن فى حاجة الى موظف « افندى » مقفول العلم والشخصية والابتكار ، اذا كان لا يقول لرئيسه الا بلهجة العبد الذليل « حاضر يا افندم » فانه مؤمن بأنه من طبقة ممتازة هى بالنسبة للشعب بمثابة السيد المتكبر المتعالى لا الخادم المخلص الأمين .

وينبغى أن يكون انعدام الشخصية والابتكار هو دستور المدارس القليلة التى تتباهى ببنائها . شعار ذلك العهد « ان فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » .

٢ ـ عهد الاستقلال الزائف بعد تتويج ٢٨ فبراير : كنا نثور ضد الامتيازات الكبيرة التى يتمتع بها الموظفون الانجليز والأجانب من كل ملة فلما طردناهم بعد دفع تعويضـات خيالية ،

وكان ينبغى الحجر فورا على السفهاء الذين دفعوها ، وحل محلهم مصريون اذا بهم يطالبون بهذه الامتيازات وأكثر منها فينالون ما يطلبون بل وأكثر مما يطلبون ، والا فما معنى الاستقلال يا أخى ؟ شعار ذلك العهد « الخواجات أحسن منا فى ايه » ؟ ولاشيء يصد عن الاتقان والتقدم مثل الغرور .

٣ ــ من آثار هذا العهد الذى بدأ فيه التطاحن الحزبى أن كثرت الشفاعات والوساطات والمحسوبية وتفاقمت البلوى بتعاقب الوزارات بعد عمر قصير ، وزادت الهوة بين الموظف والشعب ، والهوة بين حاجة العمل وعدد الموظفين . وزيادة عدد الموظفين عن الحاجة أشد ضررا بالعمل من قلته .

وكان شعار هذا العهد على هيئة محاورة .

ــ ما شهادة هذا الموظف ؟

ــ ان لديه أكبر شهادة هى : ج.ب.ف .

ــ لم أسمع قط بشهادة بهذا الاسم .

ــ معناها جوزبنت فلان باشا .

٤ ــ نشطت مطبعة قوانين الموظفين ولوائحهم وتداخلت وتشابكت بحيث أصبح مــدير المستخــدمين الذكى أهم من الوزير ، وارتفعت كلمة « المنشور » فى ذلك العهد الى مقام الألوهية .

٥ ـــ ثم جاءت الضائقة المــالية : وعجزت الحكومة حينئذ عن علاجهــا فأحبت أن تتفادى الانتقاد بفتح بــاب التوظف للعــاطلين ، جيوشــهم الجرارة بدأت تخرج من المــدارس بلا حساب .. شعار هذا العهد على هيئة محاورة أيضا :

ـــ شوفوا له شغله عندكم .

ـــ زى ايه ؟

ـــ أى حاجة .

٦ ـــ من آثار هذه الفترة (وهى نتيجة حتمية) الميل الى تخفيض المرتبات وكان أعجب العجب أن الحكومة حينئذ وهى تعلم حق العلم أن هــذه المرتبات غير مجزية أخذت تضرب كفا بكف شاكية من انتشار الرشوة والاختلاس .

النتيجة : وضع لوائح أساسها « امسك حرامى » الدفتر الواحد عليه ستة توقيعات . والغريب أنه كلما تشددت اللائحة زاد الاختلاس والرشوة .

٧ ـــ اتباع الحكومة زمنا لسياســة غير مفهومة : وهى تعلم حق العلم أن المشاريع الواردة فى الميزانية التى صــدرت متأخرة عن موعدها بشهور لا يمكن تنفيذها خلال السنة ومع ذلك تضع لستر موقفها هــذا القانون السخيف .(ما لم يصرف

لا يرحل للسنة التالية) « شغل الحكومة عاوز كده » • لم يلغ هذا القانون السخيف الا أخيرا والحمد لله •

٨ ــ زاد تركيز العمل فى العاصمة ــ كان نقل فراش من مكتب بكتاب فى أسوان الى دشنا يحتاج الى أمر يصــدر من الوزارة بالقاهرة •

شعار هذا العهد :

ــ ما تعرفشي واحد فى الوزارة ؟

ــ شغلتاك عند مين ؟

ــ مش عارف ؟

ــ اسأل يدلوك •

٩ ــ عجز تام عن مجاراة الابتكارات الحديثة كأجهزة الاتصال الداخلى والاختزال وآلات النسخ السريعة ووســائل وضع الأرشيف وحفظه وترتيبه الخ •• الخ •

شعار هــذا العهد : « المهم أولا اننا نلاقى الورق راح فين » •

١٠ ــ وفى وسط هــذه البلبلة تضــاءل عنصر الخبراء وضاعوا فى الزحمة ولم نعرف كيف ننشئهم ؟ ولا أين نجدهم ؟ ولا كيف ننتفع بهم ؟

شعار هذا العهد : « العائد من بعثة التخصص فى الكيمياء الصناعية يشتغل مفتشا للأغذية ، لم نجد له وظيفة أخرى ، هو زعلان ؟ مش اشتغل والسلام » •

من الانصاف أن أعترف بأن هذه العهود كلها لم تخل مع ذلك من موظفين أكفاء خدموا أمتهم باخلاص وأمانة ولكنهم قطرة فى بحـر ، وكانوا فى أغلب الأمـر غير سـعداء ، نرى مسـحة من الحزن على وجوههم • والحـزن داء يفـل العزم والارادة • اننى مشغول بالحـاضر والمستقبل ولا أحب أن أغرق فى المـاضى ، فليذهب الى حال سبيله ، واياك أن تظن أننى متشائم لا أقدم لك الا صورة قاتمة ، أنت لا تعرف مقدار فرحتى أننا استطعنا بفضـل الثورة وبالرغم من هذا البلاء كله أن نحقق فى فترة قصيرة ما يلى :

(أ) تأميم البنوك وشركات التأمـين ، وهى عصـب الاقتصاد القومى ، انه فى نظرى لا يقل خطرا عن تأميم قنـاة السـويس •

(ب) تحويل تجارة الصادر والوارد (أى اليد الموضوعة على الرقبة) الى أيد مصرية • يكفى أن محصـول القطن كان الى عهـد قريب لا يمر منذ أن يخرج من يد الفـلاح الى أن يصدر الا بأيد أجنبية ، حتى السفينة أجنبية ، أما الآن فلا يمر (الا بأياد مصرية) حتى السفينة فى أغلب الأحيان مصرية •

(جـ) كهربة خزان أسوان ، وانشاء الصناعات الثقيلة ، قد تكون خطواتها الأولى وئيدة ولكن هـذا شأن كل نبت جديد ، وعن قريب ان شاء الله نملك السد العالى .

ولكن كل هذه النواحى الجميلة ينبغى أن لا تنسينا أن عقدة العقد عندنا فى عهد الثورة الاشتراكية هى الجهـاز الحكومى الذى تضاعفت مسئولياته ألف مرة ، ولذلك فانه هو شغلى الشاغل هـذه الأيام ، أناجى نفسى بالليل والنهـار وأقول أتمنى أن أغمض عينى وأفتحها فأجد تحقيق ما يلى :

١ ـ ميزانية ليست مبنية على الدرجات المـالية ، عامل الارتقاء اليها هو الزمن من وحده ، بل مبنية على أنواع العمل مع وصفه وتحديده . وليست المشكلة عويصة فيما أظن ، فلدينا لحسن الحظ أكثر من كادر واحـد يتحقق فيه الشرط الذى أطلبه ، مثل كادر رجال القضاء والسلك الدبلوماسى والمهندسين والأطباء وضباط البوليس . ولكن المشكلة باقية فى الجهـاز المـالى والادارى ـ وأنت تعلم خطره ـ وفى عدد ضخم من الموظفـين أراهنـك بألف جنيـه اذا استطعت أن تصف لى عملهم . فأتمنى أن يكون ترتيب هؤلاء الموظفين لا بالدرجات المـالية بل بتحديد عمل الوظيفة ، مثلا : كاتب حسابات ـ كاتب حسابات أول ـ وكيل قسم حسابات ـ رئيس قسـم حسابات ـ وكيل ادارة الحسابات ـ رئيس ادارة حسابات ..

وهكذا • ويطبق هذا أيضا على موظفى المخازن والأرشيف • هذه هى الوسيلة الوحيدة التى نستطيع بها أن نصل الى تحديد حاجة العمل فى كل وزارة الى عدد من الموظفين لا يزيد عليها أو ينقص دونها •

٢ ـ الفصل بين مرتب الوظيفة والمرتب الذى يقبله الموظف ، ليختفى بذلك تسعير الشهادات وضرورة الترقية بفعل الزمن وحده ، فلكل وظيفة مرتبها الثابت ، يدفع لمن يشغلها ، ويضاف لهذا المرتب علاوة تزيد أو تنقص حسب الحالة الاجتماعية للموظف ، وأتمنى أن تقاس هذه العلاوة بمقياس واقعى عادل ، (فتختلف فى منطقة عن منطقة كما يحدث فى فرنسا) ولا خوف من هذه العلاوة لأنها ستزول حين تعمم الخدمات والضمانات الاجتماعية كافة طبقات الشعب •

٣ ـ سأنادى الى أن يجف حلقى بضرورة تركيز الاهتمام على تقوية دعائم الحكم المحلى بأن يستكمل كيانه واستقلاله فى أقرب وقت • ان نظام الحكم المحلى هو خشبة النجاة •

من سوء الحظ أن هذا النظام لا يجد له تاريخا أو تقاليد يستند اليها ، ولذلك فلابد أن يعانى متاعب الولادة وأنت تعلم أن الانجليز أرادوا محاربة الحكم النيابى بانشاء مجالس المديريات كما أرادوا محاربة الجامعة بانشاء الكتاتيب ، ولذلك

انزلقت الأحزاب فى فرحتها بالتمتع بحكم برلمــانى زائف الى اهمال مجالس المديريات بل الى معاداتها لا لشىء الا لأنهــا ولدت فى أحضــان الانجليز ، سياســة خرقــاء ، اذ كان فى امكانهم بث الحياة الوطنية السليمة فى هــذه المجالس . وكانت النتيجــة أن زادت العناية بالعاصــمة وقل الاهتمــام بالريف وأصبحنا نرثى لحالنا اذا ذهبنا الى طنطا (وهى عاصمة وجه بحرى) أو الى أسيوط (وهى عاصمة وجه قبلى) فوجدناهما رغم القصور الشامخة غارقتين فى غياهب العصور المظلمة .

٤ ــ أتمنى أن ينشأ بنك يسمى (البنك البلدى) وظيفته اقراض الحكومات المحليــة لاعانتهــا على تنفيذ مشروعاتهــا العمرانية من ماء وانارة وطرق مواصلات ومساكن ودور تعليم ومجار ويكون عمل وزارة البلديات اعداد نمــاذج موحــدة بمواصفات دقيقة لأحدث صور محطات المــاء أو النور لقرية أو لمدينة وهكذا .

لقد وجدت فى تركيا أثناء عملى بسفارتنا بأنقرة مثل هذا البنك صيته أكبر من حقيقته (الحال من بعضه وكلنا فى الهم شرق) ومع ذلك أرسلت لوزارة الخارجية تقريرا مفصــلا عن عمله واختصاصاته . أظن لم يقرأه أحد .

٥ ــ أتمنى بعد أن تركز الاستيراد فى يد الحكومة أن

تنقطع شكوى الوزارات من انها لا تحصــل على حاجتها من المواد المستوردة فى أوقاتها المناســبة ، ولست أدرى ما هو الحادث الآن ولكنى أحلم بجهاز يقظ واع يجمع بين المشرفين على الاستيراد وممثلى الوزارة لا لرسم خطة بل لتنفيذها ، وأرجو أن تكون مسئولية هذا العمل معلقة برقبة شخص حتى نستطيع محاسبته •

ان الأبنية القديمة يتداعى بعضــها لبعض ، المظلوم مع الظالم وكذلك الأبنية الجديدة يقيم بعضها بعضــا ، من شــد حيله مع من لم يشد ، ولذلك ينبغى أن نحارب فساد الجهاز الحكومى بوسيلتين : الأولى : من الداخل بأن نرش عليه أكبر قدر من (الكومن سنس) (وكأن اسم هــذا المبيد الحشرى قد خلق خصيصا لهذا الجهاز) ، من الخــارج بأن نطوقه حتى نخنقه بأكبر عدد ممكن من الأعمــال الناجحــة التى تتم رغم أنفه وبشرط أن نحيطها بالثقة والتشجيع فما أســهل الانتقاد والزراية والاستنقاص والسخرية على عجائز الفرح •

اهتمامات رجل الشارع

الكلام عن قوى الشعب الكامنة التى يراد استنهاضها جميعا لمواجهة أخبث عدوان وقع على أمتنا لمواجهة تحديات العصر ، وهذه القوى تكبلها أو تبددها غوائل عديدة ينبغى فى نظرى أن تسلط عليها الأضواء بالحاح لكى تصرخ فى وجوهنا وتظل مستلفتة لاهتمامنا ، فلا مجال للاعتماد على هذه القوى الا بعد تأمين تحريرها أولا من هذه الغوائل ، وقد ضربت لك أمثلة عليها ، وأضيف اليها اليوم مثالا قد يكون الكلام عنه من قبيل اجترار البديهيات ، ولكن لا بأس ، فالغرض هو تسليط الأضواء باستمرار ، ثم ان لى هدفا آخر سيأتى بيانه .

الحديث هنا عن الأمراض ، وأظهرها الأمراض البدنية ، أفلا يقفز ذهنك الى البلهارسيا التى ظلت تغتال قوى الفلاح منذ أن بدأ ينتفع ببركات نظام الرى المستديم ، كأنه دفع من دمه وعافيته كل ربح عاد على البلد من زراعة القطن • من قبل — أيام رى الحياض — كان يشرب ماء نصفه طين ، زاد عليه — بعد الرى المستديم — نزوله للغسل فى ترعة ماؤها يعج بديدان لا تراها العين •

البلهارسيا لم تفتك بقوى الشعب فحسب ، بل اغتالت أيضا خزانة الدولة لأن الأموال الطائلة التى تصرف فى علاجها هى أشبه شىء بالنفخ فى قربة مقطوعة ، وربما ستكون للبلهارسيا هجمة جديدة حين يتحول ما تبقى فى الصعيد من رى الحيضان الى رى مستديم بعد وصول مياه السد العالى •

فاستئصال مرض البلهارسيا ينبغى أن يكون فى مقدمة الأهداف ان أريد فك قوى الشعب الكامنة من عقالها ، وقد قرأت أخيرا اعلانا تجاريا يبشرنا باكتشاف مطهر للقواقع تمت تجربته عندنا بنجاح فانكسرت بذلك سلسلة انتقال العدوى الى الانسان ، ولكن الظاهر أن علماء وزارة الصحة لا يريدون مباركة هذا المطهر الجديد الا بعد مزيد من التثبت . فلو صدق هذا الاعلان لكان له دوى كبير لا فى بلدنا وحده بل فى كافة الأقطار الموبوءة بالبلهارسيا •

هنالك أمراض أخرى كانت تغتال قوى الشعب الكامنة كالانكلستوما والملاريا والسل ، وأضيف اليها الزهرى بسبب توارثه من جيل الى جيل وبسبب ما يحدثه من تشوهات بدنية وعصبية ، ولكن غوائل هذه الأمراض قد تراجعت والحمد لله كثيرا ، كما تراجعت مظاهر انتشار العاهات كالعمى والصمم والخرس ومظاهر التشوهات البدنية أيضا ، لابد أن أشهد أن عدد هذه التشوهات البدنية التى كنت أراها فى صباى تزيد بكثير عما أراه منها الآن فى شيخوختى •

والأمراض البدنية ظاهرة للعيان ، بقيت أمراض خفية ، قد لا تحظى لهذا السبب باهتمام كبير مع أنها أشد فتكا بقوى الشعب الكامنة وأعنى بها الأمراض العقلية والنفسية ، فاذا كانت الأمراض البدنية تبشر بالتراجع فان هذه الأمراض العقلية والنفسية تنذر بالتزايد ، ومما يزيد من مشكلتها أنها تحتاج الى علاج أطول ونفقة أكثر ، ان أسوأ المستشفيات فى العالم كله هى مستشفيات الأمراض العقلية ، بعضها لا يزيد عن مخزن تلقى فيه نفاية من البشر لتموت على مهل تحت تراب النسيان •

لست أدرى ما مبلغ انتفاع أطباء العقول والنفوس عندنا بأنبوبة الاختبار الجديدة التى ألقتها الهجرة بين أيديهم ، فالهجرة هى إنتقال الفرد من بيئة مألوفة يستكين لها الى بيئة جديدة مليئة بالتحديات ، ويتمثل فى هذا الانتقال نقطة

الانكسار التى تنفجر عندها أمراض العقول والنفوس الكامنة فى أشخاص لهم مظاهر الأصحاء وهم مرضى • فقد نكتشف من دراسة أحوال المهاجرين نسبة تفشى الأمراض العقلية والنفسية فى بلدنا •

هذا الكلام كله ــ أعترف ــ من قبيل البديهيات ولكنى أكتبه كمثال لاهتمامات رجل الشارع التى أرجو أن يكون لها مثيل من اهتمامات العلمــاء فى معاملنا ، أى أخذ غوائل قوى الشعب الكامنة بنظرة شاملة تترابط فيها الجزئيات ولا تنفصل فليس الطلب من هؤلاء العلماء هو توفيقهم فى أبحاثهم فحسب بل ادراكهم أنهم لا يعملون عمل فئات منعزلة فى قطاعات منفصلة، بل انهم يعملون لمعالجــة مشــكلة واحدة : هى اطــلاق قوى الشعب الكامنة ، حينئذ يكون نجاحهم لبلوغ أهدافهم المتعددة أيسر منالا ، ولكن لا ســبيل الى ذلك الا اذا حنت قــلوبهم وأسماعهم لمصر وهى تناشــدهم أن يأخذوا بيدها ، وأن يطلقوا قواها الكامنة من عقولها •

المصلحة العامـة ...

يلعب فى عبى الفأر كلمـا طلع انسان يطالب فى حمـاس شديد بتخفيف بعض القيود أو تشديدها تحقيقا — حسب قوله — لمصلحة عامة . اذ علمتنى التجارب — مع الأسف — أن هـذه الغيرة النبيلة على المصلحة العامة انمـا تخفى تحتها طمعا دنيئا فى تحقيق مصلحة ذاتية ، هى مربط الفرس ، وسر الحماس .

انه رجـل ذكى حويط — فى نظر أهـل المكر الحقـير لا الأسوياء — يريد أن يضرب عصفورين بحجر ، أن نصفق له باعتباره بطلا لا ينام الليل من فرط حرصه على مصلحة بلده ،

يجشم نفسه مشاق التفـكير العميق فى حل مشاكله ثم ينبرى لوجه الله وحده ليحامى للجميع ، للغلابة الذين لم يجدوا من يأخـذ بيدهم سـواه ، أو من يعبر عن ضـمائرهم وينطق بلسانهم غيره ، والعصفور الثانى ــ وهو عنده آسمن الاثنين ــ أن ينحنى فى غمرة التصفيق والهتافات ــ وكأنما خلسة وفى غفلة من الرقباء ــ ليلتقط جائزته ويضعها فى جيبه ، لا يهمـه بعد ذلك هـل الخـير الذى ناله قد عم الجميـع ، أم بقى فيهـم مظلومون .

هذا مسلك لا يصدر الا عن الجبن والنفاق . وتفضيل الالتواء على الاستقامة ، والحيلة الماكرة على الصراحة الشريفة . لابد أن أسأل نفسى : هل هو من جراء عهود الذل الطويلة قد أصبح خلة متأصلة فى طبعنا ؟ أقول هـذا لأن هـذا المسلك شائع فى مختلف المستويات .. قد أعذر ــ وأنا محتقر ــ هؤلاء الجهلة المحتاجين الذين يرسلون بلاغات الى النيابة والبوليس بامضـاء « محب للحقيقة » ــ وليس هنـاك حقيقة يحبونها الا رغبتهم فى الايقاع بخصـم ، وربما ظلمـا ، ولكن تأخذنى الحيرة ويفيض قلبى حين أجد أن هـذا هو فى كثير من الأوقات مسلك بعض المثقفين المرتاحـين ، حين تتوالى اقتراحاتهم التى لا يرد فيها اشارة الا للمصلحة العامة ، أو بكاء الا عليها .. وهم يهدفون فى الحقيقة الى تحقيق مصلحة ذاتية .

أعود بالذاكرة الى برلمانات أيام زمان ـ وكنت شغوفا بقراءة محاضرها ـ كم كانت كثيرة هذه الأمثلة : نائب يحتكر المنبر لا أقل من ساعة وبصوت محترق واشارات عنيفة وحماس المصلحين المجردين عن الهوى يطالب ـ خدمة للمصلحة العامة ـ بضرورةتعديل أنظمـة الامتحانات العتيقة الظالمة فى الجامعـة واستحداث ملحق يدخله الراسبون ، حتى لا تضيع على هـذه الزهور اليانعة سنة كاملة من عمرهم ، بسبب هفوة غير مقصودة ، أو مرض مفاجىء ، أو نسيان طارىء •• (تصفيق شـديد من جميع المقاعد) ونواب المديرية التى جاء منها حضرة العضـو المحترم يصفقون له أيضـا ولكنهم يبتسمون فى مقاعـدهم فى سرهم ، انهم يعلمون أن للخطيب المفوه ابنا سقط فى الامتحان ، ولولاه لمـا كان ما كان •

نائب آخر يبكى بحرقة على الرقعة الزراعية فى طول البلاد وعرضـها ويطالب بوقف التوسـع فى مـد خطوط السـكة الحديدية ، اكتفاء بتحسين الطرق الزراعية ، (تصفيق) ـ هذه المرة غير موصوف بأنه شديد ، نواب المديرية التى جاء منهـا حضرة العضو المحترم يبتسمون فى مقاعدهم فى سرهم ، انهم يعلمون أن الخط الحديدى الجديد فى المديرية سيأكل أرضـا يملكهـا الخطيب المحترم ، المجـرد عن الهوى •• وأنه لولا الأطيان لمـا كان ما كان •

وهكذا ، وهكذا ...

والغريب أن المصلحة الذاتية المختفية تحت المطالبة بمصلحة عامة ينفضح سرها سريعا ، لأن لها رائحة ، تشمها الأنوف بسهولة ، من بين الجمرات الملتهبة سيتسلل زيق من الدخان الأسود ، يتعرج فى الهواء كخط الابرة على الورق فى عيادة الطبيب ، تكشف عن مكمن الداء ، واذا بسعى الماكر المحتال ينقلب عليه ، ان اقتراحه رغم التصفيق سيلقى به من فوره فى سلة المهملات ، لأنه حقير ، وليد الكذب والنفاق ، انه قد هدم نفسه بنفسه ، ولو أنه ملك شجاعته وآثر الصراحة وكلام الشريف للشرفاء ، فلربما بلغ غايته .

ولكن المصيبة أن بلاء هؤلاء الناس لا يقتصر عليهم ، بل انه يقيم للنفاق سوقا رائجة ، تعم بالعدوى ، انها تزرع الشكوك فى القلوب ، وتقطع الطريق على القلة التى عصمها الله من النفاق فأرادت أن تقول كلمة الحق ، خدمة للمصلحة العامة وحدها ، فحين لا يكون فى التداول الا عملة زائفة ، يكون من العسير على صاحب العملة الصحيحة أن يثبت للناس أنها صحيحة ، انظر الى أى حد تنقلب الأوضاع .. واذا لم تكن للكلمة كرامتها فهيهات أن تكون لها جدواها .

فأقول لمن يقرأ كلامى من العمال والفلاحين ، الصديق الذى من أجله وحده أكتب هذه الأسبوعيات ، أننى فى عهدنا

الحاضر أربأ بك أن تكون من أهل هـٰذا المسلك البغيض ،
ان كانت لك مصلحة ذاتية تريد أن تدافع عنها فقل ذلك صراحة
ولا تغلفها ضمن خطبة حماسية للدفاع عن مصلحة عامة ، لا خجل
من الدفاع عن مصلحتك ، وانما الخجل كل الخجل من الكذب
والنفاق ، ثم الحكم أنك بهذا النفاق انما تهدم نفسك بنفسك .

هــــدية ...

هذه تجارب لى أقدمها هدية منى الى أعضاء مؤتمر الاتحاد الاشـــتراكى ممن لم يسبق لهم المساهمة فى مناقشات عامة ، فى مؤتمر أو ندوة أو لجنـــة ، عدد الحـــاضرين لا يهم ، فهـــذه الاجتماعات يسودها جو واحد ، أرجو أن يتقبلوا الهدية بابتسام لأننى لففتها لهم بابتسام ، ـــ ها أنذا فى مؤتمر سلف لى أن حضرته ، جالس فى مقعد لا هو فى الصف الأول ـــ فاننى أكرهه .. ولا فى الصف الأخير ، لئلا أضيع ، بل فى الوســـط ، وهو خير الأمور ولأننى أحب أن يرانى رئيس الجلسة بوضوح اذا رفعت يدى طالبا الكلام ، أبحث عن صـــديق حميم أجاوره لأدردش معه عند

الملل ــ وما أكثره ــ وحبذا لو كان بجانبى باب أزوغ منه فى ستر عند اللزوم ، بدأت الجلسة وتوالى الخطباء وأنا أتتبع كلامهم بانتباه يتراوح بين اليقظة وحافة النعاس .

التجربة الأولى ، تلمع فجأة فى ذهنى فكرة أراها بديعة جدا ، سليمة المنطق جدا ، هيهات أن يتزعزع اعتقادى بأننى اذا شرحتها من على المنصة سأنير الطريق وأحل الاشكال وسأقابل بتصفيق شديد ، ها أنذا أرفع يدى وأطلب الكلمة وأنتظر دورى ، ومنذ تلك اللحظة انقطع انتباهى ــ قليله وكثيره ــ لكلام الخطباء المتعاقبين ، أتمنى أن يلقوا كلماتهم خطفا وينزلوا ، حتى يأتى الدور على أنا سريعا ، أصبحت غير منشغل الا بفكرتى ، الا بنفسى فاذا بى وسط هذا الانشغال ورغم هذا الانشغال أتيقظ فجأة ــ مرة أخرى الى أن أحد الخطباء يقول نفس الفكرة التى جالت فى ذهنى ، أول أثر فى نفسى أننى أشعر بغيظ شديد ، ثم استثقل دم الخطيب ، لله فى لله وأكاد أتهمه بأنه سرق الفكرة منى وهى تجول فى ذهنى أو فى جو القاعة ، فأنا مؤمن بأن الأفكار تشتم من الرأس وتسبح فى الفضاء ويستطيع ذهن آخر أن يلتقطها ، وبعد الغيظ أنتقل الى التحسر ، على نفسى وسوء حظى ، ومع أننى أرى رأى العين أن الحاضرين لم يلقوا كل بالهم الى هذه الفكرة ومرت كأى كلمة أخرى ، هايفة أو غير هايفة ، دون أن تنير طريقا أو تحل اشكالا أو تقابل بالتصفيق ،

ومع أننى أرى رأى العين أن الخطيب نزل مدلدل الأذنين ، يكاد الكســوف يعلوه مع هــذا كله أظل أجتر غيظى وتحسرى لأن الكلمة ضاعت منى .

خلاصة التجربة : لا داعى للغيظ أو الحسرة اذا سبقك غيرك وعبر عن أفكارك ، احمد ربك أنه كفاك مؤونة الكلام .

التجربة الثانية : تحتل ذهنى فكرة ، أستطيع أن أعبر عنها تمام التعبير فى دقيقتين ، من ضمنها النحنحة الافتتاحية ، كلمة ورد غطاها ولكنى أرانى كأننى رب بيت يقدم لضيفه قطعة لحم من درهمين وبغير خضار أو سلطة ، اذن لابد من التعويض عن قــلة اللحم بكثرة التحــابيش ، لابد للكلمــة التى سألقيها من مقدمة ـــ أعلم أن لا لزوم لها ، تستغرق ربما عشرة دقائق ، وهكذا أتساوى ـــ على الأقل ـــ مع أشد الخطباء ايجازا ، ومع أن نيتى هى الاكرام فان جزائى يكون دائما قاسيا ، فما أكاد أفرغ من المقدمة حتى أحس أن انتباه الجميع قد انصرف عنى ، واذا بقطعــة اللحم لم تؤكل ، بــل ألقيت الى القطــة تحت المــائدة .

خلاصة التجربة : احترس من التحابيش أشد الاحتراس .

التجربة الثالثة : الخطيب متحمس جدا للمطالبة بسن قانون جديد أو تعديل قانون قديم مؤكدا أنه يدافع عن مصلحة عامة ،

وجميع الحـاضرين يعلمون أن له فى طلبه هذا مصلحة ذاتية ، يطـالب بعقد دور ثان للامتحانات ويكتم ان له ابنا ساقطـا ، أو بالغاء حكم الطاعة ويكتم ان له بنتا ناشزة ، وهكذا • لست أنا وحدى ، بل جميع الأعضاء يستصغرونه فى سرهم ، ويهزأون به ، بل ربما غضبوا منه لأنه استخف بفراستهم ، أقل جزاء له عندهم تشاغلهم عنه ، وحتى اذا كان رأيهم من رأيـه فانهم ينتقمون منه برفض طلبه •

خلاصة التجربة : لا تتكلم فى مصلحه عامة سترا لمصلحة خاصـة ، والا نخشى أن تصارح الحاضرين بها ، فهـذا أكرم لك ولهم •

التجربة الرابعه : وهى أن التجـارب السابقة كلها • اذا سـألتنى هـل رأيت عفريتـا أقول لم أره لا فى خرابة ولا فى حفلة زار وانمـا أحسست به احساسا شـديدا فى كل مؤتمر أحضره لا فى أى مكان آخر ، فـاذا به يجول فى أحشـائى ولا يكف عن القفز كالقرد ، يعضعض حـكمتى بأسـنانه ويرفع ضغط دمى بقفزاتـه ويسـوقنى الى المواقف المخزيـة ، هـذا العفريت يتقمص شهوة عجيبة جدا ، قليل من يصـمد لها ، شهوة الكلام • كأن فريستها اذا لم يتكلم فقد معنى وجوده فى الدنيا وعد من الهمل الضائعين ، كلام أى كلام ، لمجرد الكلام ولو للدفـاع عن البديهيات ، فريسة هـذه الشهوة لا يستطيع

أن يبلع ريقه الا اذا تكلم ، ولا يهد من جبروت هذه الشهوة تكرار البرهان كل مرة على أنها تنتهى دائما بيواخ وحبوط .

خلاصة التجربة : احترس من هذا العفريت كل الاحتراس ، واجتهد أن تصده عنك بكل قوتك .

(« التعاون » ، العدد ٢٨٤ ، ١٩٦٨/٧/٢٨ ، ص ٩) .

المنــارات ..

ما هــو الموقف الــذى يتخــذه الشعب حيال العوارض التاليــة ، عرفناها زمنا ، وربما عرفها ويعرفها كل شعب ، وان اختلفت الصور .

---

١ ــ رجل يعلن تمجيده للمثل العليا التى ترسمتها تعاليم دينه فى ظنه ، ويجهر بأنها فصل الخطاب والسر الأوحد للفلاح ، لا خلاص للأمة الا بالتمسك بها ، والسير على هداها ، يروج لعقيدته بالقلم ، وبالكلمة من فوق المنابر ، ويحث الناس على اتباعه ، وينعى أشــد النعى على المخالفين له ، وربما سلقهم بألسنة حداد ، وأمعن فى تجريحهم والزراية بهم ، وأســند اليهم سبب كل بلاء ، وهو غالبا يحصر جهاده فى معركة صغيرة فرعية ، تسيطر عليه كالفكرة الثابتة ، كأن لا خطر الا خطرها ولا هم له الا همها ، ولكنه ــ فيما يبدو ــ يراها حجر الزاوية .

وأشهى هذه المعارك الصغيرة الفرعية عنده تدور حول تبرج المرأة ، يرجع اليه فساد الزمان ، هنا يرتفع تألمه الى النحيب ، وتحسره الى لطم الخدود ، وكلامه الى قمة البلاغة . أو يختار معركة تدور حول مدارس المبشرين فيحمل عليها لأنها ضارة بالأمة ، مقتلعة لجذور حضارتها ، هادمة لتقاليدها الصالحة ، ماحية لشخصيتها . ثم يغلو فيقول ان هذه المدارس تخطط لها مؤامرة خفية ، واسعة النطاق ، قديمة العهد ، فهى تبطن الشر وتدلس عليه بأنها انما تفعل للخير ، وربما شن المعركتين معا فى آن واحد ، لأنهما فرعان من أصل واحد ، وكأنهما أول شيء يسره أن يعلم الناس عنه ما يكتب ويقول غير مبال بعد ذلك بمصير رسالته كأنما فرض الجهاد عنده هو الاكتفاء بابراء الذمة ، ببذل النصح لأمته .

هذا دأبه ، فاذا عاد هذا الرجل من طوافه على الناس ودخل داره سأل أهله : هل عادت شوشو من « الماكر كور » ، وفيفى من « المير دى ديو » وتوتو من « سان فنسان دى بول »؟ وأقبلت عليه فتياته الثلاث مرتديات آخر تقاليع المودة الباريسية، فأخذهن بين أحضانه واعتز بحسن سمتهن ونصاحتهن ، ورق لهن قلبه ، ووجد فى رضا الأبناء عنه نشوة الأبوة . ثم قام عنهن ليكتب آخر مؤلفاته فى محاربة تبرج النساء ومدارس التبشير .

٢ ــ رجل يجاهر بأنه يحب وطنه كل الحب ، لا يرضى له أن يجثم فوق أرضه وأنفاس أهله غاصب محتل ، وهذا الغاصب المحتل هو العدو الذى لا يرجى منه خير ، فكل الذى يعقله هو حتما شر ، ترى هــذا الرجل فى الصباح يكاد يتمزق من الحسرة والخجل لضياع الكرامة ومذلة الهوان ، ولكنك تراه فى المساء ، فى أحد الصالونات ، جالسا حول مائدة أنيقة مع نفر من رجــال هذا العدو ، يبادلهم الابتسامات والنكات وربما اعتز بأن بينه وبينهم صداقة وطيدة وأنهم يخصونه باحترام لا يقل عن احترامهم للقادة من بنى جلدتهم •

٣ ــ رجل يعلن أن مقاطعة بضائع العدو هى أقوى سلاح فى يد الأمــة ، ثم يكون قمــاش بدلته من صنع هــذا العدو ، وتفصيله عند ترزى من قوم هذا العدو ، وشبيه ببدلته قميصه وحذاؤه وسائر أدوات بيته •

ولا أزعم أن هؤلاء الرجال أشرار ، أو أنهم أمثلة لانحطاط البشر ، أو أن ذمتهم خربة ، وضمائرهم ملوثة ، أو أنهم خونة ، فمن الجائز أن يكونوا مع ذلك من أطيب الناس وأحسنهم خلقا • ولا أتهمهم بتعمد النفاق واستمرائه أو السعى بمسلكهم الى جر مغانم ذاتية ، فقد لا يكون شيء من هــذا قد خطر ببالهم •

هذه العوارض قد لا تكون لها عواقب بادية للعين أو سريعة التحقق ، هى نوع من السم البطىء الذى يغتال فضــائل الأمة

وقدرتها ، على خفاء ، ثم البلبلة ، سينصرف عن قضاياه ورؤية الحق بالانقسام الى طائفتين :

طائفة تجنح الى العذر واختيار الراحة والأخذ بالأهون فتقول : المهم هو الرأى ولا شأن لنا بصاحب الرأى • ولعل هذا الأب واقع تحت ضغط ظروف لا قبل له بمقاومتها • ولعل هذا الوطنى يرى استخلاص الحق بالمسالمة اصبعا اصبعا ، والاستعانة بالعدو — وهو شر — لمحاربة عدو آخر أشر منه ، ونعل لابس البذلة والقميص والحذاء زبون قديم توثقت صلته منذ الصبا بمن يتعامل معهم ، فمن العسير على مروءته أن تتحلل من ولائها • ثم لماذا نسألهم أن يبدأوا هم بأنفسهم ، لماذا لا يبدأ غيرهم أولا الخ الخ الخ ••• هنا تنطق الانسانية بكل ما فيها من ضعف ومهادنة •

وطائفة أخرى تقول : لا فرق بين الرأى وصاحب الرأى ينبغى دائما أن يبدأ بنفسه اذا أراد لغيره أن يتبعه أو حتى يصدقه • ولو أن هذه الأنماط كانت من عامة الناس لما أنكرنا عليهم مسلكهم حتى ولو كان معيبا ، كل منهم وشأنه ، ولكنهم يتصدون لقيادة الشعب ، وحينئذ لابد أن يكون حسابنا لهم عسيرا ، لا نقبل منهم أى عذر ، وليس لهم عندنا أقل تسامح ، نريد من هذا الأب أن يربى بناته وفق دعوته حتى ولو وجد نفسه متهما بالتخلف والجمود ، ومن هذا الوطنى أن يقابل

عداوة العدو بعداوة أشـد ، يرفض أن يخالطه أو يصافحه ثم يقوى ويعمل على محاربته بكل سلاح ، ومن هذا الوقف لعهود الصبا أن يجد مروءته فى التحلل منها لا فى التمسك بها . أفضل عنده أن يسير فى الثوب الرث من صنع بلده ، لا فى الثوب الأنيق من صنع عدوه .

كل أمة محتاجة أشد الحاجة الى أمثلة هى على النقيض من هذه العوارض ، أناس ولو قلة قليلة ــ يبرزون للشعب وهم مستمسكون قولا وفعلا بالمثل العليا التى ينادون بها . حتى ولو استحقوا الاتهام بالهوس ، بالتعصب ، بالاستغراق فى الأحلام ، فى الأوهام ، فى طلب المستحيل فى الانتحار ، هم المنارات التى ينبغى أن تقوم واذا قامت أن لا تنطفىء .

والآن أبحث من حولى عن هذه المنارات .

(« التعاون » ، العدد ٢٥٥ ، ١٩٦٨/١/٧ ، ص ١٠) .

العلم والفهم

انتبه فجأة وهو يمشي بقدميه ، ويجرى بروحه وأعصابه ، يلهث دون أن يدرى ، سعيا وراء الرزق ، رغم أنه مضمون برحمة من ربه فانه خائف من فاقة يتوهم أنها ستحط عليه بلا انذار ، بلا ذنب ، خوف سرعان انقلابه الى خوف من الحياة ذاتها ، يحس ببرودة هذا الخوف فى كفيه المرتعشتين ، وركبتيه المخلخلتين ، وفم معدته المنقبض ، ودقات قلبه المضطربة ، من الوقوع من قمر القفة ، من السقوط وسط الزحام فتدوسه الأقدام .

وشبيه بسعيه وراء الرزق سعيه وراء الأخبـار ، ان أذنه تتطلبها لا مشيا بل جريا اليها ، تلهث هي الأخرى ، دون أن يدرى، ما هي الأخبار ؟ .. لا يكفيه هـذا السؤال ، بل سؤاله هو : ما هي آخر الأخبار ، وآخر وآخر الأخبـار يصبح عنده فورا قديما ؟ من جديد سؤاله : ما هي آخر الأخبار ؟ .. ولو سألته ما هو الخبر الذى تنتظره لمـا عرف كيف يجيب ، ولو قلت له واذا جاءك هـذا الخبر فمـاذا هو فاعل بك ، وما أثره عليـك لمـا عرف أيضا كيف يحاورك .

انتبه فجأة الى يد خفية تستوقفه وصوت مجهول يهمس له : قف . تريث ، ابلع ريقك الملتهب ، اصح لنفسك ، تأهل ، فكر ، على رواقـة ، افهم ، ان عقلك الموهـوب لك لكى تستخدمه هو الذى الآن يستخدمك ، يركبك ويهز ساقيه على جنبيك ، يقودك بشطحاته الخيالية ، يخضعك لدورانه فى حلقة مفرغة ، بسبب تهيبه أو عجزه عن شق مسالك جديدة يعود دائمـا الى مسـلك واحد آلفه وارتاح له وان أصابه التكرار بالعقم ، ان عقلك يشـتغل لنفسـه كالزنبرك المفـكوك طول الوقت ، ولا يشتغل لك دقيقة واحد ة ، منضبطا وفق ارادتك وتوجيهك ، وفى يدك لجامه ، قد تكون معلوماتك متلاحقـة كثيرة جدا ولكنها تتكوم فى عقلك كأنها أثاث الساكن الجديد فى مسرحية يونيسكو ، يسد النوافذ ويحجب عنه الضـوء

ويكاد يخنقه ، عندنا أساتذة كثيرون ، حصيلتهم من المعلومات وفيرة جدا ، فى قنينة لو فتحت سدادتها لسالت مدرارا ، ولكن القليل منهم هم الفاهمون ، الذين استخلصوا درهم زبد من قنطار لبن ، ويضيف له الصوت قائلا : احذرك من تحصيل العلم اذا لم تعقبه محاولة للتفكير ، للفهم ، ان الذى وضع فقه كل الديانات هو غلبة العلم على الفهم .

وحين تستوقفه هذه اليد الخفية ويهمس له هذا الصوت المجهول يحس أنه قب من قعر بئر سحيق ، ورأى زرقة السماء لأول مرة ، وتنفس ملء رئتيه وشعر بسعادة كبيرة وفرح لا حد له ، وتبين له بشاعة حاله السابق وحماقته ، وأقسم أن لا يعود اليه . ولكن لا يدوم هذا كله الا كطرفة جفن ؛ سرعان ما يعود يجرى وهو يمشى ، ويسأل : ما هى آخر الأخبار ؟ .

أتراني رسمت لك صورة لفتى العصر أو بالأصح لداء العصر .

***

يتجه ذهنى الآن ـ فى هذه المرحلة الحاسمة ـ الى قادة الشعب المسئولين عن مصيره ، ان وظيفتهم الأولى

والرئيسية ليست تحصيل العلم ، ينبغى أن لا يغرقوا فى خضم المعلومات ، بل فى التفكير ، فى الفهم ، فى الرؤية الواضحة ، انني أتمنى أن (أشكل) كل سكرتير يحمل لهم أطنانا من الملفات والأوراق ، وأقول له اتركهم ليجلسوا فى راحة كل الوقت الذى يريدون ، للتفكير ، للفهم ، يشع من عيونهم نور كشاف يغمر الحاضر ويفترش المستقبل أن لا يهب أى ريح من المعلومات على أجهزة دقيقة فى عقولهم ، قياسها ووزنها وكيلها بحساب الشفرة .

(« التعاون » ، العدد ٤٠٢ ، ١٩٧٠/١١/١ ، ص ١٠) .

مولود فى برج الثور

الطابور كالساقية ، بدل القواديس أجساد بشرية ، هنا الفحل المغمم لا يدور ، بل طالع نازل .. لا يكاد ينصب رأس الطابور فى المصعد حتى ينمو له ذيل . كأنما يخشى دائما أن تنكشف عورته . والمصعد يصـــاب فى كل وجبة بالتخمـــة . وتستأصل له زائدة دودية .

والطابور له تضاريس ، ووقف صاحبنا يراقب المرتفعات والمنخفضات أمامه وعادت لذهنه خطبة الحجاج الرهيبة : أرى

رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ، وأحس فى نفسه أنه قادر على قوة فظيعة ، قد تصل الى القتل ، فلم يدهش أو يخجل •

انه يقصد الدور الثامن ، ولكنه طلب الدور التاسع • يعلم من المرات السابقة أن المصعد لا يقف فى الدور الثامن • الأفضل لقدميه النزول من التاسع للثامن لا الصعود من السابع الى الثامن ، تفلسف وقال فى سره ، فى الحياة الهبوط أسهل دائما من الارتفاع •

فى الدور الثامن ادارة يتردد عليها جمهور غفير • فى الدور الأول ادارة للاحصاء ، لا شأن لها بالناس الا على الورق • قال فى سره : الحكومة مثلنا تكره العزال • وعاد لذهنه مثل يقول : عزال واحد يساوى حريقتين •

أدرك من المرات السابقة أن المصعد كان مخصصا فى الأصل للخدم • خرج الى براح اسمه المنور ولكنه مظلم جدا • لمع فى ذهنه تشبيه أولاد البلد لسواد الظلام بالكحل • كحل العيون السهتانة من فوق البرقع ! ولاد البلد بصبصاتية • يموتون فى الغزل • ابتسم فتجدد حبه لهم • ومشى على مصطبة السلم اللولبى • عن يمينه ويساره أكداس من ملفات ودفاتر تكاد تصبح عجينة واحدة يعلوها التراب • والأرض مغطاة بورق ممزق • بعضه مكور وبعضه مفرود • فمن الأيدى ما هى

عصبية .. وما هى مخروقة . هـل اتلهت الحكومة بكنس الشوارع عن كنس بيتها ؟.

دخل الى عالم المتناقضات : زحمة شديدة وصفير الريح فى مكاتب عديدة . حجرات دواليبها خشب من عهد اسماعيل . تهدلت أشـداقها ، اذا عرضت على سـوق الكانتو لخر مغشيا عليه . وحجرات دواليبها من الصلب آخر موديل ، وقلبها كقلب الشباب فارغ . موظف جالس على روافه يولى ظهره لنافـذة تطل على أجمل منظر فى القاهرة ، وفراش محنى الرأس فى ركن يوش فى أذنيه وابور غاز فى مرحاض . هنـا البوفيـه . بعض المكاتب قهوة رجالى . بعض المكاتب حصة فسحة فى مدرسـة بنات . توتر شديد على الوجوه ، زهق شديد على الوجوه ، من شدة الزهق نسوا أن علاج الزهق الهرش فى الرؤوس . تأمل الأيدى فوجد بعضها قد استسلم بلذة للشلل ، وبعضها يعانى من هذيان العطش لرشفة ماء فيها النجـاة من الخوف . الخوف من شىء مجهول ، لايعرفون أى شىء هو ، ولكنـه يحطم أعصابهم . كل شىء يبوخ بالتعود الا هو .

كانت هـذه المرة العـاشرة ، أو المرة العشرين ـــ أصبح لا يدرى التى جاء فيها على وعد أكيد بأنه سيتسلم الورق ، ورقه هو لا ورقهم هم . لو كان ورقهم هم لتنازل عنه ولو فتح له باب الجنة . ليس عنده مع الأسف نسخة أخرى من هـذا

الورق . بذل كل جهــده فلم يفلح فى أن يبرأ من سذاجتــه وتصديق كلام الناس ومعاملتهم على أنهم أبناء ، لا عجب ، فهو مولود فى برج الثور لا الأسد محال عليهأن يقول : يا بخت المولود فى برج العقرب . هو زبون قديم ، عتيق ، مزمن ، ومع ذلك قابله رئيس المكتب كأنه زبون جديد : لبخ . اضطر لأن يروى له القصة لتاسع مرة ، أو لتاسع عشرة مرة . أصبح لا يدرى . وللرئيس نظرة اليه أحس معها أنه لوح رقيق من زجاج شفاف . فهى تعبره وتمضى لحــال سبيلها . شىء يغيظ أن يكون كل هذا الطول والعرض على فاشوش ، هذا احساسه مع أنه قزم . لم يكن يتوقع أن يكون فى نظرة الرئيس شىء من الدهشة . تمنى أن لو كان بها شىء حتى من التأفف . وصمت الرئيس لحظــة كأنه يجرى فى مخه عمليــة حسابيــة . عبرت ابتسامة خفيفة من شفتيه عن توفيقه فى حلهــا واهتدائــه الى الجواب الصحيح . ابتسامة من بنات السخرية وان كان ملؤها الاعجاب بالنفس . أمام الرئيس جرس ولكنه لم يضغط عليه بل نادى بأعلى صــوته ، كمن يلقى بحبل لا يعلم من سيلتقطه :

ــ ابراهيم أفندى هنا ؟

رد عليه صوت من بعيد :

ــ موجود . عاد اليوم من الأجازة المرضية .

خيبة الحساب هي الجرح الوحيد الذى تتململ له كرامته ، طأطأ رأسه ليعيد مخه الجمع والطرح ثم نادى بصوت أعلى كأنه يستحث همة ذكائه .

ـــ واسماعيل أفندى هنا ؟

جاء الرد بصوت أعلى درجتين ، احتجاجا على الملاحقة والالحاح :

ـــ موجود . رجع اليوم من المأمورية .

قدم الرئيس لا رأسه هى التى تهتز الآن تحت المكتب . تضرب الأرض ضربات خفيفة . ثم نادى بصوت كأنه زعقة سيحتضر بعدها كل أمل :

ـــ وموسى أفندى هنا ؟

جاء الرد بصوت ممطوط كأنه يتغنى بالكلام :

ـــ سافر أمس آخر النهار . جاءه أمر عاجل بانتدابه للسفر للاسكندرية . سيعود بعد أسبوع .

تهلل وجه الرئيس وقال من فوره لصاحبنا الواقف أمامه :

ـــ ورقك عند موسى أفندى . تعال بعد أسبوع !

(« التعاون » ، العدد ٢٥٧ ، ١٩٦٨/١/٢١ ، ص ١٠) .

الزحلقـــة ..!

حين تشرفت لأول مرة ــ فى يوم من أيام سنة ١٩٢٧ ــ بالتمرغ فى تراب الميرى وجلست على كرسى خرزان هايظ القش أمام مكتب (من درج واحـــد) وأصبحت مع ذلك موظفـــا قد الدنيا ، كنت غشيما ، أدركت أن كل ما تعلمته فى المدارس لن يغنينى عن ضرورة التزود سريعا بمهارات جديدة ، أهمهـــا أن أكسب الحداقة فى فن الزحلقـــة ، والا أصبحت بين زملائى فى المكتب « حمار شغل » واياك أن تظن أن اكتساب هــذه المهارة ســـهل يسير ، فلكى تعرف كيف تتهرب من القوانين واللوائح والمنشورات وتزحلق عملك على غيرك ينبغى أن تكون ملما كل

الالمـــام بهذه القوانين واللوائح والمنشـــورات لا لنفعك ، بل نكاية فى غيرك ، وفوق الالمـــام مكر شديد ، أفضله وأتمه حصانة أن يكون طبعا ، يكاد يكون موروثا ، لأن التطبع به عسير ، معرض دائما للثغرات المفاجئة •

وكانت الزحلقة على مستويين ، أفقى ورأسى ، أما الأفقى فمن نوعين : الأول بين الوزارات أو بين الادارات أو حتى بين المكاتب • مثاله تأشيرة وزارة الداخلية على طلب الترخيص بفتح دكان فول وطعمية « يحال على وزارة الصحة للاختصاص » ، وتأشيرة ادارة المستخدمين على شكوى موظف من تأخر صرف معاشه « يحال على ادارة الحسابات للاختصاص » • وغالبا ترجع الأوراق لمن زحلقها وعليها التأشيرة التالية « يعاد لعدم الاختصاص طبقا للقانون كيت وكيت أو المنشور كيت وكيت » •

الديوان منهمك ــ ظاهرا ــ فى عمل متصل مرهق ، ومع ذلك فعدد المسائل التى يبت فيها بدون زحلقة قليل ، هيش مهول ولكن على فاشـــوش وماكنـــة دائرة بسرعة مقعقعة ولكن على الفاضى •

أما النوع الثانى من الزحلقة الأفقيـــة فبين موظفى المكتب الواحـــد ، فى كل مكتب موظف معروف بأنه « حمـــار شغل » لا لأنه غاوى شقا ، بل لأنه أخيبهم فى فن الزحلقة • الغريب أن

جميع « حمير الشغل » فى الديوان ــ وربما فى الحكومة كلها ــ كانوا متقاربين فى الشبه ، وجها وخصــالا وان اختلفوا أجساما وأعمارا ، لابد أنهم يعانون جميعا من نقص فى افراز احدى الغدد المجهولة • ضع عشر دجاجات غريبة فى قفص ، بعد ساعات قليلة ستجد دجاجة تنقر الجميع وتأكل قبل الجميع • ودجاجة ينقرها الجميع وتأكل بعد الجميع •

فاذا جئنا للمستوى الرأسى فى فن الزحلقة وجدنا أنها كانت تسير فى خط واحد من فوق لتحت • الوزير يترك الهم لوكيل الوزارة ، ووكيل الوزارة يؤشر « للسكرتير العام » ، والسكرتير العام يؤشر « لمدير ادارة كذا بسرعة التنفيذ » ومدير الادارة يؤشر « لرئيس مكتب كذا للتنفيذ فورا طبقا للتعليمات » •• وينتهى الملف فوق رأس « حمار الشغل » فى مكتب صغير •

فكانت كلما علت الوظيفة قل شغل الموظف وزاد فراغه ، اللهفة على الترقيــة ليست لعــلاوة فى المرتب ، بل لمزيــد من الراحة ! مكتب الوزير لا يتصبب فيه عرق ولا تختنق الأنفاس بتراكم الملفات ، يأخذ العرق والاختناق فى الازدياد كلما نزلت الوظيفة درجة بعد درجة ، الوزير يحضر حينما يشاء وينصرف حينما يشاء ، الوكيل يحضر قبله بدقائق وينصرف بعده بدقائق وهكذا الى أن تأتى لطبقة صغار الموظفين فهم وحدهم المطالبون بالتوقيع على الساعة الرنانة فى الحضور والانصراف •

وكان الوزير لا يربط نجاحه بسمعة كفاءته ، بل بمصير حزبه ، لم يكن الوزراء يأكلون أعصابهم من خشية الاخفاق ، يسودهم دائما جو من البجبحة ... همهم الأوحد هم سياسى .

أما الآن فانى ألحظ بشىء من الانزعاج أن الزحلقة الرأسية أصبحت تسير فى خط واحد : من تحت لفوق ، لا من فوق لتحت كما كان فى الماضى . موظف المكتب الصغير يؤشر « للسيد السكرتير العام للنظر » والسكرتير العام يؤشر « للسيد الوكيل لابداء الرأى » والسيد الوكيل يحمل الملف ويذهب يعرضه على السيد الوزير .. بعد أن كان الوزير هو أكثر الموظفين فراغا أصبح أشدهم ارهاقا ، ومما يزيد ارهاقه ربطه لسمعته بمدى نجاحه .

بعد أن كان العمل كالحجر ما يكاد يلقى على السطح حتى يغوص فى قاع البحر ، أصبح كالماء العميق لابد لنزحه من عمل متصل لطلمبة يدوية يتولى الوزير بنفسه تشغيلها لكى يتدفق الماء .

اننى أرثى والله لوزرائنا هذه الأيام ، انهم يعملون أحيانا أكثر من ١٦ ساعة فى اليوم الواحد على مدار الأسبوع فالشهر فالسنة ، فاذا قاموا بأجازة صغيرة أحسوا كأنهم يرتكبون ذنبا ،

وربما لم ترحمهم الصحف وقامت : الحكومة فى أجازة ، انهم يبذلون جهدا يفوق طاقة البشر ، وهم جواهر هذه الأمة ، وأمل الدولة ، فينبغى أن نحرص عليهم ، وينبغى لهم أيضا أن يحرصوا على أنفسهم ، قلبى ينعطف لهم وأنا أرى مكاتبهم مضاءة فى نصف الليل ... وأكون عائدا من مسرح أو سينما .

لابد اذن أن يتدفق العمل تلقائيا من تحت لفوق ، أن يعفى الوزير من تشغيل طلمبة اليد ، بأن يضع كل موظف فى مكانه اللائق به ، وتحدد اختصاصاته ، ويلقى عليه وحده قسط من المسئولية لا يراجع فيه أحدا ، يكافأ اذا أصاب ويعاقب اذا تكرر خطؤه .

من أجل حرصى على أعصاب المهندس صدقى سليمان رئيس الوزراء وزملائه أرجو وأشدد الرجاء أن يكون أول شيء يفعله هو وضع خطة يتدفق معها الماء تلقائيا ، من تحت لفوق ، حتى نعفيه من تشغيل طلمبة اليد بنفسه .

(« التعاون » ، العدد ١٨٧ ، ١٩٦٦/٩/١٨ ، ص ٨) .

الأســد .. والحمــل

كتبت الى صديق وأنا أهنئه باســناد منصب رفيع اليه ، يعمل تحت امرته مئات من الموظفين ، قائلا له أيضا : أتمنى أن يكون نفاذك الى العمل عن طريق الانسان العامل ، لاشك شعر بضيق كأننى صببت فوق رأسه معضلة أو لغزا ، ربما استسخفنى لأنه رآنى أتمشــدق بكلام فطرى بحت ، يحوم فى ســماوات الخيال ولا يهبط الى الأرض ، أو وصفنى بأننى رجل عواطفجى ، ومن كان هــذا شأنه أصبح عثرة فى طريق من نسميهم بالعمليين، أو خلخلــة فى الجــو بحيث يختلط فيه الصحيح بالزائف ،

والأساسي بالثانوى •• ضننت به أن أتصوره وقد وضع موظف عنده ملفا أمامه فوق مكتبه ، وظل واقفا كالصنم ينتظر ، فأرخى الى الورق من فوره ببصره وهو صامت ليقرأ ، ثم كتب ــ وهو ساكت ــ تأشيرته ، ثم طوى الملف ــ وهو مطرق ــ ومده الى يد الموظف ، أو ترك لهذه اليد ــ دلالة على الاستعلاء والهيبة ــ التكفل نيابة عنه بعبء طي الملف ومناولته ، استدار الموظف وخرج • لم ير منه الا مسافة ما بين القدم واليد ، كأن الموظف شبح مقطوع الرأس •• تمنيت عليه كما يرخى ببصره الى الورق يرفعه أيضا الى وجه هذا الموظف ، لا حاجة للكلام ــ سيستشف من هذا الوجه أى انسان هذا الواقف أمامه ، سيحس بمشاكله ومتاعبه ، من لون بشرته ، من دعكة جفنيه ، من هيئة ثيابه •• وماذا بعد ؟ لن يتأتى له أن يفض له مشاكله ومتاعبه أو يشفيه من عقدته النفسية لو عرفها بالتفصيل ، ولكن مجرد التقاء نظرة صائدة ــ من فوق ــ لنظرة عائمة ــ من تحت ــ سيبدل الجو من برودة الجفاف والتقاطع الى دفء النضارة والتواصل ، انه جو لاشك أفضل لتقدم العمل وانجازه •

ومشكلة الدواوين كما خبرتها هي صعوبة الاهتداء الى رئيس وسط بين نمطين نقيضين ، كلاهما مغالاة الى الحد الأقصى ، نمط استتب الاعتقاد بأن العمل لا يصلح ولا ينتظم

الا به ، انه رئيس « حمش » ـ بكسر الحـاء والميم ـ مشهور بشخطه ونطره ، انه قاس لا يرحم ولا يقبل عذرا ، عضته والقبر سواء ، الله أعلم به فى بيته أو مع أصدقائه ، ولكنه فى الديوان غلس ثقيل الدم ، لسانه زفر ، لا يتورع عن اهانة الموظف اذا أخطـأ أو قصر ، لا يأذن لأحد من أعوانه بالجلوس فى حضرته ، كم دلقت هـذه العنجهية الفارغة أطنانا من المرارة فى قلوب الموظفين ، انه يريد من الموظفين أن يكونوا كالدمى ، لهم حركة ميكانيكية فى وصولهم فى الميعاد ولو تأخر هو ، فى التزامهم الجلوس أمام مكاتبهم بلا زوغان ، فى انصرافهم لا فى الميعاد بل بعد انصرافه هو مهما طال مكوثه .

وكانت شهادة الجدارة الوحيدة التى يحملها مثل هـذا الرئيس انه (ادارجى) ولا يهم بعد ذلك مقدار علمه أو كفاءته لشغل منصبه . (سمعنا عن نقل وكيل وزارة المواصلات لوزارة الزراعة لأن ديوانها بايظ) .. كل شيء على ما يرام : فى النظرة العاجلة السطحية ، لكنك لو دققت لتقززت من شيوع النفاق فى هذا الديوان ، لأن الموظفين أصبح همهم قبل انجاز العمـل مداهنة هذا الرئيس ، ومع النفاق ذل ، فلا نفاق الا من ذليل ولا ذليل الا كان منافقا .

والنقيض رئيس يقال عنه : « هـــذا رجل طيب » والمعنى، هذا رجل ضعيف كالحمل ، انه يألف الطبطبة على الموظفين ، أوامره اليهم فى ضعة رجـــاء • وأحيـــانا يضيف : « علشـــان خاطرى » يكتفى فى مناداته لهم بالاسم الأول ، لا لقب ولا رتبة من أفندى وبيه ، والعجيب أنه أشد الناس اخلاصا لعمله ، اذا لم يجد من يعينه حمل أكبر العبء وحده ، فلسفته أن هؤلاء الموظفين كأبنائه لابد أن يحنو عليهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وهو مؤمن أنهم سيفهمون فلسفته وسيرتفعون الى مســـتواها فيكون انجازهم للعمل لا أداء لواجب فحسب بل تطييبا لخاطره أيضا وحياء منه •

أثبتت التجارب كلها أنه غارق فى الوهم وفاشل فشـــلا ذريعا فى ادارته لديوانه ، ينطبق عليـــه المثـــل ـــ حتى لو حضر هو ـــ « غاب القط العب يا فار » • ولعل فشله هو الذى يرفع من نجم النمط الأول ، فلو قد نجح لتعرض هذا النجم لشىء من الأفول •

كأننى كنت أريد أن أتمنى على صديقى أن يجد لنا الحل الوسط • أن لا يكون لينا فيعصر ، ولا جامدا كالصخرة وسط بحر من ذل ونفاق •

(« التعاون » ، العدد ٤١٢ ، ١٩٧١/١/١٧ ، ص ٦)

صـــدفة ...

صدفة ولا ريب اجتماع هذه المواضيع فى عدد واحد من صحيفة « الأهـرام » من يوم الخميس المـاضى ، مكتوبـة باختصار شـديد ، وبخط دقيق ، لا تعلوها منشـتات بارزة ، وبعضها فى نهايات أعمدة ، فى الصفحات الداخلية ، التى تقفز عليها العين عادة ، بعد أن تكون قد تمقمقت فى تفلية الصفحـة الأولى المتضمنة أخبار الجبهة ، والمقاومة ، والموقف السياسى ، وغزو الفضاء ، فاذا بها مع ذلك تتعود الامساك بتلابيبى وأنـا أعبر بها لتستوقفنى وتجبرنى على قراءتها بامعان ، وأن أتأمل مغزاها طويلا ، ودلالتها ، لأنها من الأهميـة بمكان عظيم ، فلم

ينطق لى شىء من قبل مثل نطقها — مجتمعة — عن صورة مجتمعنا الحديث وهو يجاهد جهاد « الميتامورفوز » ليتحول من خلقة التخلف الى خلقة التقدم والرقى ، هى نموذج للمشاكل والصراعات التى يعانيها كل مجتمع يريد أن يتطور ، ينبغى تجاوزها بنجاح وبدون امهال ، واذا كان بعضها يثير القلق لصعوبة تعتعته فان بعضها الآخر — لحسن الحظ — يبعث على الطمأنينة والبشر .

الموضوع الأول هو نتائج الدراسة التى أجراها الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ، عن الذين تزيد أعمارهم عن عشر سنوات فى بلدنا ، يتبين منها أن نسبة الأمية فى الحضر تبلغ ٥٦ر٨٪ بين الذكور و ٧١ر٢٪ بين الاناث ، ومتوسط الأمية فى الريف ٧٦ر٧٪ بين الذكور و ٨٨ر٩٪ بين الاناث .

أرقام مذهلة ، مؤلمة ، تثير القلق ، اذ كنا نأمل أن تكون الأمية قد انحسرت عن مجتمعنا بنسبة أفضل ، بعد الجهود الكبيرة المبذولة لمحاربتها وكسر حدتها وغلوائها ، على الأقل ان لم يكن للقضاء عليها . هل تزايد السكان هو الذى يغتال كل جهد متتابع ؟ هل هناك أخطاء فى رسم المناهج أو تنفيذها ؟ ما أحوج هذه الدراسة التى اقتصرت على الاحصاء أن تتبعها دراسة تجعل همها تفسير النتائج وتحليلها . من الذى يقوم بها ومتى ؟ أتمنى أن يوضع هذا الاحصاء بخط بارز كبير على

لافتة أمام أعين كل المسئولين عن محو الأمية والعاملين فى حقله ، بل أمام المثقفين ليكون بمثابة ناقوس يدق بالانذار ، ليكون بمثابة جمرة تلسع فتوقظ من الغفلة ، وتكسو الوجوه بحمرة الخجل ، لتكون مصب المسئولية التى ينبغى أن تلتف على جميع الأعناق •

الموضوع الثانى هو الدراسة الهامة التى قام بها الجهاز المركزى للتنظيم والادارة عن تشغيل المرأة فى بلدنا ، ومنطلق هذه الدراسة تقدم مذهل فى مجتمعنا ، وهو سيادة العقلية التى تعترف بحق المرأة فى التساوى والرجل فى العمل ، الاعتراف بما هو أبعد من ذلك ، أى بحق المرأة أن لا تكون أنوثتها غرامة عليها بأى حال من الأحوال ، لذلك فان هذه الدراسة لا توصى بتماثل الأجر بين المرأة والرجل فحسب بل أيضا بمنح المرأة العاملة أجازة وضع لمدة شهرين فى السنة بأجر كامل وبحد أقصى ثلاث مرات طوال مدة خدمتها (لتحديد النسل ، لتضع فى عينها حصوة ملح) وبأى يكون لها أيضا أجازات عارضة تزيد عن المصرح بها للرجل بخمسة أيام فى السنة •• ولكن الأهم من ذلك كله أن الدراسة توصىبأن يصبح من الجائز للمرأة المتزوجة أن تطلب القيام بنصف عمل نظير نصف أجر ، لتوفق بين وظيفتها وبيتها ، حيث عيالها ، وفى التوصية الأخيرة سخاء يبلغ حد التدليل ، فقضاء نصف الوقت فى الوظيفة مربك للعمل ولا ريب ، واذا كان تطبيق هذه

التوصية ممكنا فقد ينشأ سؤال آخر : هل تتحول عبارة « يجوز للمرأة المتزوجة أن تعمل نصف الوقت » الى « واجب عليها أن تعمل نصف الوقت » ، وتطبيق هذا المبدأ فورا على كل العاملات ان أردنا أن نسد باب البطالة بين الذكور المتكفلين باعالة أسرهم ... من أم أرمل وزوجة الخ .. الخ ، أوصت الدراسة أيضا بتعديل هيكل التعليم الحالى للمرأة بحيث تكون القاعدة فى الهيكل المقترح الثقافة النسوية ، أعترف أننى لم أفهم هذه التوصية ، فهى معارضة لمبدأ مساواة المرأة والرجل فى جميع الأعمال .هل المقصود بها قصر بعض الوظائف على الرجل وبعضها على النساء ؟ فأنت ترى أن عمل المرأة عندنا لايزال مسألة متعددة الجوانب ، يطغى بعضها على بعض ، هى فى حاجة الى تنسيق على أفضل الأوضاع ، الملائمة لنا ، وقد تركناها تنشأ وتنمو بغير قيد ، ولعلها أصبحت من الجسامة والتعقد متأبية الآن على التنظيم ، هى من أهم المشاكل وأبرزها فى سير المجتمع من التخلف الى الرقى .

الموضوع الثالث يبعث على الاطمئنان والبشر ، انه ريبورتاج (ربما منشور بأجر دفعته محافظة القليوبية) عن لقاء وزيرى الأوقاف والشباب بشبان الجامعات فى معسكر عملهم بمدينة

طوخ ، ويقوم هؤلاء الشبان بتوسيع المدخل القبلى للمدينة وطوله كيلو متران ، ونزول هؤلاء الشبان تطوعا الى الخدمة العامة والعمل اليدوى ، والخلطة بين أبناء المدارس وأبناء الحقول ظاهرة صحية من مبتكرات المجتمعات الاشتراكية ، نرحب بها ونرجو لها مزيدا من النمو فى بلدنا .

(« التعاون » ، العدد ٣٣٨ ، ١٩٦٦/٨/١٠ ، ص ١٠ ، ٩) .

هــذه الكلمــة ..

كنا نريد من كل بد أن نبحث عن مشجب نعلق عليه كل أسباب النكسة ، نخلع عليه جميع أوزارنا التى تثقل كاهلنا وتعذب ضميرنا ثم تتنفس الصعداء ، فى ذل ولكن فى راحــة ، وجدناه فى كلمة واحدة هى : التكنولوجيا .. أصبحت هــذه الكلمة شائعة على جميع الألسن ، لا تخلو منها مجلة أو صحيفة، أو حديث فى الراديو والتليفزيون ، رجــالى وحريمى ، لم يعد فطاحل الكتاب يقولون « تقنية » أو « صنعة » وضعوا هذين اللفظين فى كيس ورموا به الى البحر ، فلا وقت للجدل اللغوى. وسادت كلمــة « تكنولوجيا » لأن لها رنينا يوحى بأنهــا

مستوردة ، بخطرها ، بارتباطها بعالم الأسرار المحجبة ، بالتحاقها بقمم العلم فى الحضـــارة الحديثة ، انها قمم لا نزال ننظر اليها ونحن فى السهل ، كأنها بعيدة المنـــال ، فهى تصلح لأن تكون أجمل عذر .

ولعل هذا الذيوع المفاجيء الذى اندلع كالحريق هو الذى يجعلنى أخشى أن يكون معنى هـــذه الكلمة قد اختلط بالدخان فغمض على بعض الأبصـــار ، فقد لحظت بشيء من الأســـف والتوجس ، أن هـــذه الكلمة أصبحت فى بعض الأذهان لا تعنى الا كلمة « آلة » آلة معقدة جدا كالعقل الألكترونى ، أو مجموعة آلات ــ كأنمـــا رســـمها بيكاســـو ــ موضـــوعة فى السفينة « ليبرتى » .. و « ليبرتى » فى الانجليزية هى « الحريـــة » فى العربية ، ما أقسى وأرذل السخرية فى هـــذا الاسم . لا تعجب من بلاد تأتينا منها عربة ترام اسمها « اللذة » ، أن تطلع علينـــا بسفينة حرب اسمها « الحرية » ، وهى عنوان صارخ على القهر وقتل جميع الحريات .

ويترتب على الظن بأننـــا اذا ملكنـــا هـــذه الآلات ولو بالاستيراد ، فقد ملكنا التكنولوجيا ، تصور خاطيء لمعنى هذه الكلمة ، انه تصور مضلل فهو خطير ، فليست التكنولوجيا آلة أو مجموعة آلات ، بل هى قبل كل شيء « منهج » و « عقلية »، ستكون العبرة دائما لا بالآلة بل باليد التى تدير هذه الآلة ، الآلة هى نتاج انسان لا العكس .

فلابد اذن أن تتغير العقلية ، أولا ، أن يكون هناك منهج متصف بالعقلية العلمية فى كل عمل من أعمالنا ، من أول توضيب طبخة اليوم ، الى ادارة معمل أبحاث ذرة موديل ١٩٦٧ .

من صميم التكنولوجيا أن يصل الموظف عندنا الى مكتبه ، فى موعده ، أن يلزمه الى أن تحين ساعة الانصراف ، أن يكون قد رتب أوراقه وملفاته من سابق ، فيجدها عند الطلب ، بل أن يكون قد برى قلمه الرصاص . أن يقبل على عمله كأن حياته متوقفة عليه وشرفه رهن به ، لا يتشاغل عنه باستقبال زائرين ــ كأن مكتبه قهوة ــ أو بالدردشة فى التليفون لأنه فوق البيعة بالمجان ، أن يسألك بلهجة جادة ليس فيها تودد كاذب أو تكبر فارغ عما تريد ، فتوحى لك لهجته بأنه لا بد من الاختصار والوضوح ليكون رده كذلك مختصرا وواضحا محددا لا يتطوح كالسكران بين أكثر من احتمال .

اننى لا أتكلم عن خيال بل عن تجربة ، فهذا هو الموظف الذى قابلته فى بلاد التكنولوجيا ، بل قابلته فى آية بائعة فى أبسط المتاجر ، لا فرق بين العجوز المتودكة والصبية المستجدة ، أخطف من يدها الربطة لأنى مستعجل ، وراض بها كما هى فتأبى أن تسلمها لى الا اذا لفتها بعناية ، وربطتها باحكام وجعلت لها أنشوطة أدخل فيها أصبعى لأحملها .. هذا هو الشغل شغل ، هذه هى عقلية التكنولوجيا .

(« التعاون » ، العدد ٢٢٠ ، ١٩٦٧/٧/١٦ ، ص ٨) .

مشــكلة المشــاكل

يحسن بنا ونحن نعالج كل يوم مشاكل اليوم (والزمن ولود) أو نحن نحاول من جديد معالجة مشاكل قديمة لها ضغط ظاهر لا ينقطع وأثر لا ينبهم لأنها لا تنفك تعترض حياة الناس ومعاملاتهم وتقابلهم وجها لوجه بصورة محددة المعالم (كمشكلة الروتين مثلا) يحسن بنا ونحن نفعل هــذا كله ــ وكان الله فى عوننا أن لا تنسينا هــذه المعالجة التى تستغرق الجهد والوقت أن نعنى كل يوم بالمشاكل الكامنة فى الأعمــاق والتى لا تجد ــ على خطرها ــ من حوادث اليوم ما ينبه اليها .

فى ذهنى مثلا مشكلة التعليم ، يخيل الى أنه حين أخذ سيل الطلبة يعلو ويتدفق من مرحلة الى مرحلة انحصر جهدنا وتفكيرنا فى معالجة هـذا التدفق الظاهر الملح بفتح المدارس والمزيد من المدارس ، عمل يشبه الاسراع فى فحت الآبار فى طريق طوفان ، لا نسأل أنفسنا أولا كيف ننتفع بماء البئر (لنترك هذا للمستقبل والزمن كفيل بايجـاد حل وفقا لظروفه حين يأتى) بل يكون أول همنا كيف نصب فى البئر أكبر قدر ممكن من المـاء حتى لا نغرق الأرض .. ومن غد نجد موجة جديدة تواجهنا فنسرع الى فحت آبار جديدة وهكذا دواليك ، لا عجب أن يأسن هـذا المـاء وتطفو الطحالب على سطحه ويفوق بلاء نزحـه بلاء جمعـه . بنينا المدارس والمزيد من المدارس وننهدنا وظننا أننا نجحنا فى معالجة المشـكلة وحمدنا الله ، ولكن نسينا وسـط الزحمـة والارهاق أن نسأل أولا : ما هو التعليم الذى ينبغى أن يلقن للطلبة داخل هذه المدارس . وان وجدت أنت أن كلمة « نسينا » هذه ظالمة وشديدة فأصالحك وأقول .. اننا لم نعن بهذه المسألة عنايتنا بفتح المدارس .

فهل من المعقول فى العصر الذى نعيش فيه أن لا ينصرف الجهد الأكبر لدراسـة برامج التعليم من أجل تطويرها . العالم كله من حولنا يتطور ، أمريـكا تعيد النظر فى برامج التعليم ، وعالمنا الصغير يتطور ــ داخل الاطـار العالمى ــ على محورين

رئيسيين الأول : ادخال الصناعة فى بلدنا وهى التى تتيح اقامة حياتنا على أسس اشتراكية • والثانى — وهو الأهم — سفور الشخصية العربية وسعيها للمشاركة البناءة فى ركب الحضارة بفضل مقوماتها الأخلاقية الأصيلة المستمدة من تاريخها وعقائدها ولغتها ومنحنى تفكيرها • وكل من هذين المحورين يتطلب برامج تعليم تطابقه أولا وتلاحق التطور العالمى ثانيا • ينبعث من قلبى دعاء الى وزيرى التربية والتعليم أن يجعلا من هـذه المسألة أهم عمل يشغلهما ، والشعب يهمه أن يعرف الجهاز الذى يتولى دراسة هذه المسألة وسير خطواته • انه كما يرى العرق المبذول من أجل فتح المدارس يهمه أن يرى العرق المبذول من أجل تطوير مناهج التعليم على أسس سليمة •

***

اخترت مشكلة التعليم — وأساسها سيل متدفق — لأنهـا تقودنا لحسن الحظ الى مشكلة المشاكل التى تعنينى هنا ، وتحتل تفكيرى ليل نهار ، أعنى مشكلة ازدحام مصر بسكانها ، ويخيل الى أننا نتغافلها أو يثور اهتمامنا بها لحظة ثم نيأس لصعوبتها وتفتر همتنا ، فحبذا لو درسناها على البارد وبغير حماس تثبط بعده •

هـذه المشكلة تكمن فى الواقع فى صميم كل مشـكلة أخرى نعانيها : رفع مستوى المعيشة ، نشر التعليم والخـدمات الصحية والاجتماعية ، التأمين والقضـاء على البطالة الخ ... الخ .

أعود مرة أخرى للتشبيه : الشعب يشبه الآن صبيا يفاجيء أهله بدخوله مرحـلة البلوغ . تفصـل له أمه بذلة على قده فلا يكاد يلبسها حتى تضيق به ، الكم لا يبلغ الا الى الكوع ، والبنطلون الا الى الركبة . فيخلعها ليلبس غيرها فلا تلبث أن تضيق عليه من جديد وهكذا دواليك . فكل الحلول التى نجدها للمشاكل الفرعية تصطدم بمشـكلة المشـاكل وهى ازدحـام السكان . فالمنطق يقضى بأن يوجه الاهتمام الأول لهذه المسألة .

لست اكتب بحثا علميا أناقش فيه نظرية مالتوس ، وهل هى صادقة أم غير صادقة . فأيا كان الجواب فان الحقائق أمامنا سافرة تكاد تلمسها اليد ، أرض محدودة ، تحيطها الصحراء من الجانبين ، موارد محدودة أو تنمو ببطء ، وشعب يتزايد عدده بسرعة مخيفة . المليون فدان أو أكثر التى ننتظرها من السـد العالى سيبتلعها السيل الطاغى اذا لم يقف ، وحتى لو قلنا ان العلم الحديث واكتشافات الذرة ستزرع لنا الصحراء ، وتمدنا بالمـاء العذب من البحر المـالح وتزيد من غلة الفدان وتفتح أبواب أعمال جديدة فأيهما أفضـل : أن يوزع هذا الخير كله

على عدد معقول من السكان أم يتبدد هو الآخر بين الملايين الهاجمة ؟

حين تترك الطبيعة لحالها نجدها تسعى بوسائلها الى ايجاد الحلول .

فلم يكن ارتفاع نسبة وفيات الأطفال فى الماضى راجعا وحده الى الفقر والجهل والمرض بل كان فى حقيقة الأمر بمثابة تدبير غريزى من الحياة للوصول الى الاعتدال ، أما الآن فنحن نتدخل بنشر الوقاية من الأمراض وتعميم الخدمات الاجتماعية ، بل نمضى الى أبعد من ذلك فنضيف علاوة على مرتب الموظف المعيل . أى نكافىء من يزيد المشكلة تعقيدا . لابد أن تتحول مسئولية ايجاد حل من غريزة الحياة الى عقل الانسان ، والطريق واضح أمامه قد رسمته له هذه الغريزة . ولا تظن أن هذه الغريزة قد اختفت ، انما الذى اختفى هو عملها وحده ، أما كلامها فباق . ان قلبى يثب وأذنى تطرطقان حين أسير فى الشوارع المزدحمة أو أركب فى أوتوبيس مزدحم كالسردين (وأنا لا أركب الا فى الدرجة الثانية) حين أسمع من عامة الشعب كلمات تخرج من أفواههم وهم لا يدركون معناها وانما تدل على أن الغريزة التى تحدثت عنها موجودة وهى التى تتكلم بلسانهم يقولون :

ـ ان القيامة قربت ، الخلق فوق بعض ، يا ساتر استر ، الناس لازم تخف وكذلك أعتقد أن القوانين الاشتراكية لم تأت في حقيقة الأمر مفاجأة لطبقة الأغنياء ، بل كان قلبهم يحدثهم بها منذ زمن غير قصير ، يعلمون أنها قادمة وان رفضوا تصديق همس قلوبهم • أتدرى لماذا كانوا يعلمون بقدوم هذه القوانين ؟ لا لأنها علامة الزمن ، بل بسبب احساسهم الغامض باختناق الوادى بسكانه • عرفت واحدا من هؤلاء الأغنياء ، ودهشت حين رأيته قد أصيب بمرض غريب لا أظنه موصوفا في كتب الطب ، ليس هو الربو أو ضيق التنفس ، بل هو شيء يشبه الاختناق ، والشعور بثقل هائل يضغط على الصدر • كان لا يخرج معى الى الطريق الا اضطربت أعصابه واصفر وجهه وارتعشت يده وزاغ بصره ، وكاد يبلغ حد الهياج وهو يقول : « الناس بتاكل بعضها بعضا » •

كان كأنما يحس بأصابع خفية تمتد الى جيوبه ، وبأيد تخطف ملابسه لتبقيه عاريا ، وأطنان من اللحم البشرى تجثم على عزبته وأفواه نهمة تأكل نباتها كالجراد • أصبحت نظرته لكل انسان ليس من أبنائه نظرته الى لص أو نشال أو سفاك يخفى السكين وراء ظهره • لم يكن سفر هؤلاء الأغنياء للخارج الا طلبا للنجاة ولو لفترة من هذا الاختناق داخل بلادهم •

فأنت ترى أن الغريزة لاتزال تتحدث الينا حديثا واضحا

لا لبس فيه • ان مشكلة المشاكل عندنا هى ازدحام السكان • ينبغى أن تحتل المكانة الأولى من تفكيرنا واهتمامنا • وأتمنى أن أغمض عينى وأفتحها فأجد :

١ — المعهد القومى للبحوث بعد ان أصدر أول تقرير له عن تعاطى الحشيش يقوم بدراسة دقيقة واعية عن ظاهرة تمدد النسل فى أى الطبقات تزداد ؛ (فقد يظهر أن الطبقة الوسطى فى المدن لا تقل نسلا عن طبقة الفلاحين) وعلاقة هذه الظاهرة بعمل الأب ، وكذلك بتعدد الزوجات (فقد يتبين أن وفرة النسل من زوجة واحدة لا يقل عن وفرته من زوجات متعددات) • نحن نحتاج الى معرفة كل هذه التفاصيل ، الى دعمها باحصائيات دقيقة •

٢ — ان يتعلم كل تلميذ وتلميذة (فى كل مرحلة حسب طاقتها) أن الشعوب المتمدنة هى التى ترفض أن تعيش كالحيوان وتعرف ضبط النسل ، مع التنبيه على خطر هبوط مستوى المعيشة عندنا •

٣ — أن تضيف الصحف الى باب السخرية برفيعه هانم وغنى الحرب وابن الذوات الخ ••• الخ • بابا أهم هو السخرية والهزء برجل يسير مع زوج حامل ويجر وراءه زربة من العيال مهلهلة الثياب ، أحذية بالية وجوارب مخروقة ، وسحن صفر من أثر سوء التغذية والأمراض •

٤ ــ أن تتولى جميع الهيئات والجمعيــات التى لها صلة بالشعب (حتى الجمعيات التعاونية) تنبيه قاصديها من النــاس الى ضرورة ضبط النسل ، يدور عنه كلام فى كل جلســة وكل اجتمــاع •

٥ ــ تيسير وسائل الهجرة بالدفاع عن نصيبنا فى الحصص التى تفرضها بعض الدول وتوثيق روابطنا الثقافية والاقتصادية بالدول النامية فى افريقيا حتى تنشأ فى ظلها ألفة تساعد على توطن المصرى بها واذا اعتنق جنسيتها فلا نمانع أو نغضب ، بل أذهب الى حد المطالبة بأن تدفع الحكومة لهؤلاء المهاجرين نفقات سفرهم واعانة تساعدهم على التوطن الجديد •

٦ ــ فاذا بدأ وعى الشعب يستيقظ فلا بأس أن ننتقل لمرحلة ثانية وهى تعليم وسائل ضبط النسل فى كافة المدارس ، ونشرها بكافة الطرق بين طبقات الشعب اذ أن الحياء العــام لن يأنف حينئذ من هذا الكلام كما يأنف اليوم •

(« المساء » ، ١٩٦١/١٠/٣٠ ، ص ٨) •

ضبط النسل بالكهرباء

اياك أن تظن أننى اخترعت لضبط النسل جهـازا كهربائيا يئز بالأزرار ويمشى على كل فولت ، ومضيت أصرخ لطوب الأرض ـ كما يفعل كل المخترعين الهواة عندنا من أن وزارة الصناعة رفضت تسجيله ومنحى براءة الاختراع ، وأن وزارة الصحة استهزأت بهذا الجهاز التحفة ، وأبت حتى تجربته مرة واحدة ، وأعادته الى عاريا وكان قد ذهب اليها مكسوا بأكثر من ثوب ، من الورق والسلوفان والقماش ، أو أننى اكتشفت ـ بعد التجربة أو فى الحـلم ـ أن الصـدمة الكهربائيـة وهى

تشفى من الخبل تشفى أيضا من الحب .. أليس الحب نوعا من الجنون ؟

لا .. لم أجىء لك بذئب دحلاب من ذيله ، المسألة فى غاية البساطة ، ولأنها كذلك لم يتنبه لها أحد من قبل . الكهرباء التى أشير اليها ما هى الا لمبة الكهرباء المبذولة للناس بسعر رخيص والسر الباتع فى العلاج بها هو نورها . فهى اذا أضاءت طردت الظلام ، وطردت الجن والعفاريت الزرق ، وطردت الوسواس الخناس ، طردت كل دادة لهذا الصبى الدلوعة الذى اسمه الحب ، فهو أبدا متعلق بأذيالها ، لأنه ينام أو يتخمد عادة بالنهار ، فاذا أقبل الليل انفلت عياره واشتط فى عبثه . هو أيضا سيولى الأدبار اذا عم الضوء ، مخليا الميدان للرزانة والتعقل وشجب الفجعنة وفراغة العين . ستعجب ولا تصدقنى وستقول لى وما هو برهانك . اذن استمع لهذا الخبر الذى نقلته لنا الصحف أخيرا عن أمريكا .

***

لم يكن فى اليوم شىء يدل على أنه مختلف عن بقية الأيام ، حركة الشوارع هى هى لم تتغير ، عدد السائرين والسائرات فرادى أو والذراع فى الذراع ليس فيه زيادة أو نقصان تلحظهما

العين ، والكمية المداوقة على الوجوه من الود والفتور ، ومن الانبساط والانطواء مطابقة لمعدلها المـألوف ، توقع الأطبـاء والممرضات وبقية موظفى مستشفيات الولادة أن عملهم فى ذلك اليوم سيكون ولا ريب بمقدار عملهم بالأمس ، وأول من أمس ، ومن غد ، فمنذ التحاقهم بالمستشفى وحالات الولادة لا يتراوح عددها الا بنسبة ضئيلة .

وفجـأة تبين لهم لشدة دهشتهم وبدون سـابق انذار أن اليوم ليس كغيره من الأيام ، دقت جميع الأجراس فى المستشفى، أرسلت اشـارات الاستغاثة للجميـع ، أعادوا المسـافرين من أجازتهم . انها التعبئة العامة ، فقد تدفق على المستشفى فى ذلك اليوم أضعاف أضعاف ما كان يتلقـاه كل يوم من البطون التى تطلب الفرج .

وكان هذا أيضا هو حال بقية مستشفيات الولادة . كأن السماء تمطر مخاضا .. ما السبب ؟ ما الذى جرى ؟ ما الذى حدث فى الدنيا ؟ .. أهى ظاهرة كونية مجهولة السبب كاختيار الشهب لليلة من وسط الليالى لتتساقط بكثرة ؟ هـل هى غزو مفاجىء من عالم الهرمونات يسـبق غزو الكواكب للأرض ؟ ما الذى أفلت عيار الساعة المضبوطة فلف عقرب الساعات مائة لفة فى دقيقة واحدة ؟ هل نكتشف لأول مرة وباء جديدا نسميه وباء الولادة ؟

انهمك الجميع فى العناية بسيل الأمهات ، لا وقت للبحث عن اجابة لهذا السؤال العويص .. الا طبيب شاب يتمتع ولا ريب بذكاء شيطانى ينفذ الى ما تحت تحت ، ماهر فى لعبة البيس بول، فيده تتلقف الكرة الطـائرة كأنمـا تصب فيهـا عن عمد وبعد نشان تلقف ذكاؤه السبب الطـائر فى جو المستشفى . انتبـه وضرب جبينه بكفه وقال لمن حوله : فى أى يوم من السنة نحن ؟ فلما أجابوه عاد يسألهم : ومتى انقطعت الكهرباء عندنا بالنهار وطيلة الليل ؟ أجهدوا ذاكرتهم حتى اهتدوا بالاجماع الى الجواب الصحيح .. فقـال لهم الطبيب الذكى : احسـبوا الحسـبة .. ستجدون الفرق الزمنى بين انقطـاع الكهرباء وتدفق سـيل الأمهات هو تسعة أشهر بالتمام والكمال ، لا تزيد يوما ولا تنقص يوما ، ان هـذا السيل المتدفق من الأمهات هو من جراير ليلة واحدة ساد فيها الظلام فى البيوت .

***

وبيوت الفـلاحين عندنا ـ ان سميتها بيوتا ـ يسودها الظلام ليلة بعد ليلة ، لا ليلة واحدة خلال العام كما حدث فى أمريكا ، ان بنى آدم فى الظـلام أشباه لا فرق بين أمريـكى ومصرى . بعد تناول طعام العشاء ـ ان سميته طعاما ـ تقول الفتيلة نفسـها من شـدة الهزال والزهق : حان وقت النوم ،

ارحمونى بنفخة من فم ولو كانت رائحته بصلا ، يسود الظلام ويرقد الفلاح بجانب زوجته ، (فوق الفرن فى فصل الشتاء) .

ومع الظلام انطلقت الجن والعفاريت الزرق ونطق الوسواس الخناس . ليس للزوج شغلة أو مشغلة . ستكون خير وسيلة لقتل الوقت ، وخير نزهة للبدن والخيال ملاطفته لزوجته وان كان لها بالنهار مجافيا ، وان كان قد شبع منها كل الشبع ، وان كان التعب قد هد حيله ، وان كان يتمنى أن ترقد بجانبه فتاة بكر فى عز الشباب مثل البنت خضرة أو البنت نعسانة . وبعد تسعة أشهر بالتمام والكمال يرزق الأب بالابن العاشر أو الثانى عشر ، كألقاب ملوك فرنسا فى القديم !

***

ان أعجب وثيقة قرأتها عن تاريخ مصر الحديث هى نص فرمان عال أصدره الخديو سعيد باستدعاء بعض الضباط المصريين الى الخدمة بعد تسريحهم . كان ظنهم أنهم استراحوا منه ، ولكنهم هم الذين زنوا على خراب عشهم . يقول هذا الفرمان العالى ما معناه (فنصه ليس تحت يدى الآن) :

علمنا أن هؤلاء الضباط قد التحقوا بأسرهم فى قراهم ، وبلغنا أنهم أوشكوا أن يفقدوا مسكة العقل ونور البصر من

هذرهم بملاطفة زوجاتهم ليلة بعد ليلة ، فاقتضت ارادتنا السنية رحمة بهم واشفاقا عليهم أن تنقذهم من الهلاك فأمرنا باستدعائهم للخدمة من جديد .

أنا واثق أن هؤلاء الضباط لو سكنوا المدن لما استدعاهم الخديو سعيد ، وشدهم من آذانهم شده لأذن صبى شقى .

وواثق أيضا — اذا عدنا لليوم — أننا سننجح فى ضبط النسل بتعميم الانارة بالكهرباء فى بيوت الفلاحين ، فاذا غمر الضوء البيت راق للفلاح أن يسمر مع أهله أو مع جيرانه أمام العتبة اذا كان ممن لا يذهبون للمقهى ، وربما وجد من نفسه همة لانجاز بعض الأعمال التى تخلفت عن النهار ، كالقيام بحسبة القطن ولو فى ذهنه ، أو اصلاح فأسه ورتق جلبابه وزرع لوزة فى نعله ، أو احكام تقلية بدنه وثوبه وفراشه .

بل قل — من باب التمنى — سيتاح له أيضا أن يتأمل ما حوله ، ويفكر ، ويسأل أسئلة تنتظرها منه منذ الأزل ، يظل يسمر ويعمل ويفكر الى أن يهده النوم فينخمد جانب زوجته ، ان لم تكن الليلة مفترجة فى حسابه فهى ولا ريب مفترجة للشعب المصرى !

بل أمضى فأقول : ان ضبط النسل بالكهرباء سينجح نجاحا أكيدا اذا أعطينا لكل بيت — هبة لا بالبيع — جهاز راديو ، وجهاز

تليفزيون . لابد أن نخلق للفلاح تسلية تكون هي شغله ومشغلته ونزهة خياله ، فى بيته . اننى واثق من أن تكاليف هـذا البرنامج أقل من تكاليف أى برنامج آخر نعده لضبط النسل .

لا تندهش اذا قلت لك اننى أتوقع أن تكون أجل بركات كهرباء السد علينا هى تأثيرها الفعال فى ضبط النسل .

***

ورغم الكلام الذى قلته أحب أن أعترف لك بأننى حين قرأت خبر وباء الولادة فى زعيمة الحلف الأطلسى شعرت بشىء من الخجل لاخواننا الأمريكان ، لو كنت منهم لما راق لى نشر هذا الخبر عنى ، فهو يدل على أن العلاقـات الزوجيـة مفككة أشد التفكك . قد أرهقها الملل . وأن منظر الزوجة فى النور مقترن بطلب أجازة منها ، أو التأجيل لموعد مفتوح تختاره نزوات أو كؤوس ، كان لابد أن يسود الظلام فلا يجد الزوج له شغلة أو مشغلة الا ملاطفة زوجتيـه دون أن يراها .. هـذا العنـاق العميانى يكاد يكون اضطرارا ، لا تبرعا أو منحة من القلب .. حقا أنهم وحدهم هم الذين خرجوا على المثل البلدى الشائع : « هوا أنا يا أخى عاشقك فى الضلمة » !

.. (« المساء » ، ١٩٦٦/٨/٢٢ ، ص ٦) .

دروس متوارثـة

أتمنى أن نجعل من دأبنـا شن حمـلة على النفاق ، لأنه السوس الذى ينخر عظـام المجتمع ، وقد يتسرب الى جميـع المستويات فيعم بلاؤه .. ولكن من هو المنافق ؟ .. هو رجل يزعم أنه أشد ذكاء من الآخرين ، هم يحصـلون على مطالبهم ــ وهى مشروعة ــ بالسعى الشريف بالجهد ، ربما بالعرق ، أما هو فيستطيع أن يحصـل على مطالبه ــ ولو غير مشروعة ــ بأيسر سبيل ، بالنفاق ، بتحريك اللسان وحده فى الفم ، وما أسهله ، انه لكى يضمن أن تخرج شبكته اذا ألقاها بصيد ثمين لا يترك رجلا فى يده ملء البحر بالسمك أو منح تراخيص الصيد الا تقرب

منه وداهنه ونافقه وصب فى آذنيه من المديح والثناء ما يزلزل الجبال ، واثقا بذلك أنه يكسبه لصفه وأنه سيعطيه مطلبه اذا تقدم به اليه ذات يوم •

فأنت ترى أنه رجـل لا يتعبد الا مصلحتـه ولا جرى له الا وراءها حتى ولو كان القـانون ينكرهـا ، حتى ولو كانت الأخلاق تنكرها ، وللنفاق دروس متوارثة ، من أولها : ان كانت قنيصتك وهى فى السلطة لها خصـم خارج السلطة فعليك أن تنافق الاثنين فى وقت واحد ، بشرط أن يجهل هـذا أنك تنافق ذاك • ليكن النفاق أيضا من وراء الظهر ، فمن أدراك ، فلعل السلطة تنتقل يوما من يد الى يد •

المنافق رجل بغيض مرذول ، لكنه ـ صدقنى ـ يستحق الرثاء أيضا ، اعتماد الناس على الله ، وعلى الحق ، وعلى سعيهم الشريف ، أما هو فاعتماده على ذكائه ، وذكاؤه المزعوم هو الذى يورده موارد التلف الخلقى ، لأنه ينتهى فى أغلب الأحوال الى أن ينافق حتى حين لا يكون له مطلب ، يعجز لسانه على النطق الا بالكذب ، محروم هو من نعمـة الصـدق ، ويقول ان له أصدقاء عديدين ، فاذا أمعنت النظر وجدته رجلا لا يقيم للصداقة وزنا ، لا يكن لأحد صداقة بريئة خالصـة ، لأن الأصدقاء أوراق لعب فى يده ، يطرحها اذا انقضت فائدتها •

انى أرتعد حين أتصور أسرة من زوج وأولاد صغار يرأسها رجل منافق .. انهم سيحسون — بوعى أو بغير وعى — بأنه كاذب فى حضه لهم على التمسك بالصدق والشرف . فتنحل جميع الصواميل التى تمسك كيانهم الأخلاقى ، ويصبحون فريسة سهلة للفساد .. وهذا هو أبشع جزاء عادل يترصد كل منافق .

ولا أعرف كتابا كالقرآن الكريم حوى أتم دراسة عن النفاق ، وأشد تحذيرا من خطره وأصدق تحليل نفسى عميق للمنافق .. ومن عجب أن يتفشى النفاق وهذا الكتاب الكريم بين أيدينا ، كأنما تقع آياته على آذان صماء .

ومن الدروس المتوارثة بين المنافقين أن يبدأ المنافق كلامه قائلا : علم الله أننى أنا معك ولكننى أقول الحق وأجرى على الله .. ومنها أيضا أن لا يقتصر المنافق على المديح ، بل يحسن به أن يلجأ الى الذم ، وانما يصبه على رأس خصوم قنيصته أو غرمائه ولو بالباطل .. واذا دققت النظر للمنافق وجدته بارعا فى المديح ، بارعا فى الشتم ، فهو رجل ذو وجهين ، وقلبين فى صدر واحد ، يسلكه الله سبحانه وتعالى مع الكافرين .

(« التعاون » ، العدد ٤٤٠ ، ١٩٧١/٧/٢٥ ، ص ٦) .

بوفيـــه

هذه الحساسية الطافحة التى يصاب بها بعض الناس اذا أكل المــانجو أو الفراولة أصــاب أنا بها من وقع كلمــة على مسمعى ، منذ أيام خدمتى فى وزارة الخارجيــة ، هى كلمــة « بوفيــه » •

نحن مكلفون باستقبال حشــد كبير من الضيوف لحفلة مسائية فى مناسبة رسمية ، قل مثلا فى قصر الزعفران أيام كان قصر ضيافة • فى صدر بهو الاستقبال باب عال عريض مقفل ، تعال نفتحه معا قبل أن يصل الضيوف ، سندخل الى بهو آخر

فسيح كأنه ملعب كرة ، وبحذاء الجدران « داير ما يدور » صف متلاحم من موائد خشبية طويلة ضيقة ، اختفى انفصالها تحت غطاء أبيض ناصــع يجرى فوقها جميعا ، اياك أن ترفع ذيله ، فانك سترى لهذه الموائد قوائم لا ينفع فى تنظيفهـا الا فـأرة النجار ، خل الطـابق مستور • وفوق الموائـد صفت قوارب انلطعت فى كل منها جثة سمكة كبيرة مزركشة بألوان زاهيـة ، مغروزة فى مزيج غليظ أصــفر لزج هو المـايونيز ، وأطبـاق مستديرة فى كل منها ديك رومى رافعا ساقيه الى حد ركبتيـه (فالباقى مقطوع) كأنه يستغيث بهمـا من هول ما جرى له ، والاستغاثة بالوكالة عن رأسه الذى ألقى به فى صفيحة القمامة ، وأطباق أخرى فى كل منها فخذ ضأن ، هذه هى المعالم الرئيسية، من حولها أطباق عديدة بها أصناف مختلفة من الطعام والسـلطة والنقل ، القوارب والأطباق من فضـة نسيت أنها كانت تلمع ذات يوم ، فلا تدرى أهى بيضاء أم سمراء هـذا هو البوفيه يا عزيزى • وصل الينا دون أن تلاحقه رائحة الزفارة والبيض المشش التى تملأ خياشيمى بلا رحمـة حين أمر بجانب الباب الخلفى للمطعم المشهور الذى أعد لنا هذا البوفيه •

يتقاطر الضيوف من رجال ونساء ، الأدب الجم ، والحركة متئدة ، والأفواه شفاه تبتسم ، التنفس براحـة ، ولو قست الحرارة لمـا وجدتها تزيد عن ٣٧ • الزينة على أتمها وان برزت بعض الكروش من حافة البنطلون الرسمى فقد مضى على تفصيله

زمن غير قصير • على سيدات عجائز حلى تصلح للمتاحف ، وحقائب اليد مع الشابات انسخطت الى حجم كرت بوستال ، يدور علينا بالشراب خدم كثيرون ، أصبح عصـير القوطه رفيع المقام ، سبحان مغير الأحوال ، هذا حيوان كان موطنه الأصلى فى دكاكين الفول والطعمية فى الأحيـاء الشعبية ويساكن خرط البصـل فى أنجر ودكته أجيـال موغلة فى القدم ، أى منذ وقع طائر غافل على جرس فكان مولد القاهرة ، ولكن من هو هـذا العبقرى المصاب بالسادية الذى رسم لهؤلاء الخدم هـذا الزى القرداتى الهادم لتراث الانسان ، لاشك أنه من سـلالة حسب الله ، ورغم ضجة البهو تصـل الى أسماعنا هتافات المنادين على السيارات أمام الباب ، ومن الباب الى أن تصل للبهو صفان من الحراس ، بين يقظـة ونعاس • أحس وأنا أمر بينهم بوش من اللعنات ينصب على رأسى •• من مثلك ؟ ! حضرتك فايق ورايق وعن قريب ستملأ بطنك بما لذ وطاب ونحن واقفون دادابان كالأصنام محرومون حتى من بشرقة عيوننا ولو بالفرجة •

وتقترب اللحظة المرتقبة ، ينفتح الباب المؤدى الى الطعام ، لابد لى أن أتراجـع الى الجدار لئلا يدهسنى هـذا القطيع المندفع نحو الموائد ، انقطع كلامه فجـأة وهرول ، ومع ذلك ثق أننى لن أسلم من كم زغد على الجنبين ، فى غمضة عين وقف صف يحجب كل شبر من الموائد ، الأكتاف متلاحمـة مثلهـا ،

هؤلاء هم أبطال السباق المدربون عليه فى حفلات سابقة ، كيف وصلوا دون تنشين الى المعـالم الرئيسـية من سـمك وديوك وأفخاذ ؟ والله لست أدرى ، من ورائهم صف ثان لا يقطع الأمل ، لأنه يستطيع بكوعه أن يزحزح السد الذى هو أمامه أو أن يدخل بجنب بين اثنين ويمد الطبق فوق الرؤوس . فى غمضة عين تصبح السمكة شوكا مجردا والديك كوما من الأمشـاط والدبابيس المتداخلة . والفخذة عظمة منزوعة من علم قرصـان ، ارتفعت درجة الحرارة الى ٤٠ ، التنفس لهثان . الأفواه أنياب وأضراس وأسنان للنهش والمضغ .

رأيت بعينى سـيدة حدثتهـا فى بهو الاسـتقبال باحترام وحدثتنى بكل رقة وظرف تخطف من طبق سيدة تجاورها نصيبها من الطورطة لأنها كانت آخر قطعة فيها . هنـاك فطائر صغيرة ، بعضها حلو وبعضها مالح ، ثق أننى رأيت من أكل من الصنفين علاولة على حسب مد ذراعه ، رأسا أو بين الأكتاف . من أمامه أو على بعد متر عن يمينه أو يساره ، أتأمل الوجوه بعجب ، قطعا اللقمة على فمه ويقبلها ثم يرفعها فتلمس جبهته ويقول : « وحق هـذه النعمـة » . كذلك اذا وجدها فى عرض الطريق تناولها ووضعها بجانب الرصيف لئلا تدوسها الأقدام ، وفى ادراكه أيضا نعمة الايمان ، ونعمـة الصحة ، صحة العقل والبدن ، ونعمـة الستر ، والنجاة من الفضيحة ، ولكن الخبز عند الشعب هو فى

الحقيقة رمز لنعمة أخرى هي الأصـــل ، نعمة العمل ، فلا خبز بلا عمل ، حتى حين يدعو لك ابن البلد بالصحة والعافيـــة فانه يقصد نعمة العمل ، فالمريض عنده هو القعيد •

وقد حضرت في المـــاضي وأنا صبي لحظة قبض عامل أجره، مرارا عديدة ، قلما رأيت رب عمل يسلم من المن أو ظهور شيء من الضيق على وجهه ، أو انطـــلاق لسانه بتأنيب على شيء فات أو تنبيهه بفتح العين في المستقبل ، وقلما رأيت عاملا يســـلم من الشعور بالمسكنة والاحتياج ، لأن رزقه رهن بارادة رب العمل وهو انسان مثله •

وكان قلبي ينخلع كل مرة ويملؤني الخوف ، وكنت أدعو الله سبحانه وتعالى أن لا يحكم على بأن أقف في يوم موقف هذا العامل ، لم تكن خشيتي من التحول عن طبقة الأفندية الى طبقة العمال هي من الانحطاط الاجتماعي أو الثقافي ، أو حتى المـــالي، ولا من خشونة الكف ، ولبس البدلة الزرقـــاء • ولا من رفض الأسر الكريمة تزويجي من بناتها ، بل من حركة مد اليد لقبض انهم لا يأكلون بهـــذه الشراهة والفجعنـــة لأنهم جيـــاع ، هم لا يثيرون الرثاء بل الاشمئزاز ، لأنهم يرون أنها خيبة ثقيلة اذا لم ينتفعوا بالفرصـــة الى آخر مـــدى ، والعجز كل العجـــز اذا سبقهم غيرهم وكان أشطر منهم ، هو امتداد لشعور يسيطر عليهم بلا وعي منهم بأن الحياة كلها ، من المهد الى اللحد ، من الصباح

الى المشاء ، سباق بين غرماء ، فيه أيضـــا قفز فوق الحواجز ، وليس المهم عندهم أن يصـــلوا الى هدفهم ، بل أن يسبقهم غيرهم فى الوصول الى هدفه •

كل هذا محتمل ، ولكن تأتى فى نهاية الحفلة لحظة رهيبة هى التى من أجلها أصبحت أصاب بالحساسية الطافحة من وقع كلمة « بوفيه » على سمعى ، انصرف آخر المدعوين وبقى على الموائد فتات متناثر وشيء من طعام فى أطباق ، لعل السبب أن مظهرها لا ينبىء عن مخبرها ، هـــذا هو قمـــة تفـــانين المطعم المشهور ، فالألغاز ضرب من ضروب الفن ، فتحاشاها من لا يحب اضاعة وقته فى التجارب ، لعلها مقالب ، وجرت عادتنا أن نجعل البواقى من قســـمة الخدم ، والحرس والمنادين ، وتتباهى أننا نعطف على الفقراء ، ونقول : هذه زكاة الحفلة • ونعطى الاشارة بالسماح • يا لها من لحظة رهيبة ، من الباب الخـــارجى جرى أقدام تدب على الأرض تكاد تخرقها ، السلم الرخامى يضبح تحتها كأنه سلم خشبى ، منهم من وضـــع ذيله فى أسنانه ، لا ليحسن الجرى ، بل ليعد عبا يضـــع فيه غنيمته ، فليس عنده مثل غيره من الناصحين كيس أو قرطاس ، سيضـــع الأكل فى ضى جلبابه المترب ، لحقوا الحرس والخدم قبل بلوغهم المـــائدة كأن لحمهم جميعا استحال الى سهم واحد من الصلب منطلق ، هكذا كان ولاشك هجوم جيوش هولاكو وتيمورلنك ، لا فرق بين العب

والكيس والقرطاس ، يقذف فيه الفتات كرجة ، الحلو على المالح ، اللحم على الفاكهة ، القشدة على السلطة ، رأيت من قبل صورة مجسمة للتكالب وحماقة الجشع ، أرى الآن صورة صارخة لمعنى الخطف وسحقة الجوع البشعة ، لا شيء كالجوع يذل الانسان ويخرجه عن صوابه ، وهـذا رجل شيخ ضعيف تضعضع وسط الزحام فلم يظفر الا بقطعتين من الجاتوه ، منتفختين على فاشوش حشوهما هواء ، ووقف يتمتم :

ــ أهي حاجة علشان العيال •

(« المساء » ، ٢٣/١٠/١٩٦٧ ص ٤) •

« .. وحق هـذه النعمة ! »

« النعمة » كلمة أحبها لأنها تجمع فى آن واحد بين الكرم والشكر ، معناها متغلغل فى ضمير الشعب ، يقسم بها حين يضع الأجر ، دعوت الله أن أكون من أصحاب المهن الحرة ، مستقلا بعملى ، غير أجير عند انسان ، والا فأكون موظفا فى الحكومة ، لأن الحكومة شخص معنوى ليس لها يد تنقد الأجر ، أما يد الصراف فهى لرجل غلبان موظف مثلى .. وربما تقدنى ما يزيد عن مرتبه هو أضعافا مضاعفة .

أكبر فضل فى نظرى للمجتمع الاشتراكى هو تخليصه لنعمة

العمـل من كل هـذه الشـوائب ، لم يعد يفسـد بهاءها منة ولا مسكنة ، العامل فيه واحد من أبناء الشعب الذين يملكون مصادر الانتاج ، فهو رب عمل قبل أن يكون عاملا بأجر ، يده اليمنى هى التى تدفع ليده اليسرى ، سلمت له كرامته فهو أقدر عن ذى قبل على شكر خالقه على نعمة العمل شكرا خالصا من كل شائبة • أتمنى أن يقترب اليوم الذى أرى فيه العامل يتناول مفكا أو ازميلا ويقبله ويرفعه على جبهته ويقول : « وحق هـذه النعمـة » •

وتمام الكرامة ينجى العامل فى علاقتـه بالآلة من خطرين طالمـا افترساه من قبل ، الأول : نمو شعور لديه بالكراهيـة نحو الآلة ، كنت أسمع فى المـاضى بعض العمال يصفون الآلة التى يرتزقون منها بكلمة « المخروبة » اذ أراهم يعاملونها بعنف ممتلىء بغل أو باستهزاء متعمد من قبيل النكاية بها ، والخطر الثانى : هو انمحاء شخصيته وانسانيته بحيث كأن يصبح جزءا من الآلة ، عبدا ــ لا سـيد ــ لها ، وعاون على ذلك تزايد ضخامة المصنع والغلو فى تطبيق نظـام تقسيم العمل بحيث لا يقوم العامل الا بعمـل ضئيل متكرر لا يتغير ، يبعث فيه الملل وتبلد الذهن ، فلا يهبه أقل قسط من الراحة النفسية أو لذة الخلق

لشيء نافع ، ان تمام الكرامة هو السـلاح الوحيد الذى يقاوم به العامل طغيان الآلة وبلعها له ، أتمنى أن يأتى اليوم الذى أسمع فيه العامل يصف الآلة بكلمة « المبروكة » لا « المخروبة » ويقف أمامها ــ مهما كان نصيبه من المصنع ــ موقف السيد لا العبد ، واحساسة بأنه واحد من أبناء الشعب الذين يملكون هذا المصنع هو الذى ينجيه من الخطرين اللذين أشرت اليهما .

(« التعاون » ، العدد ١١٧ ، ١٩٦٥/٥/١٦ ، ص ١٢) .

نعمـــة العمـــل

وبعد النعمة أزمة ، هكذا حال الدنيا أريد أن أتحدث هنا عن الأزمة النفسية التى قد يتعرض لها عامل طيب عازم على أداء واجبه بدقة وأمانة ، شاكر لربه نعمـــة العمـــل ، ولكن المقادير أوقعته فى مصنع انفرد دون بقية المصـــانع باضـطراب فى جهازه العصبى ولم يأبه الطبيب بعد . فانى أتخيل هـــذا الأخ العامل داخلا فى جدال مرير مع نفسه وهى تحدثه قائلة :

ـــ يا لك من عبيط ، مغفل ، أنت تشقى فى العمـــل دون غيرك . ألا ترى أن المدير رجل جعجاع ، غارق فى الفخفخة كأنه

لا يدرك أو يتجاهل تحول المجتمع من عهد الى عهد ، سـيارة فخمة ، تكييف هوا فى المكتب ، طقم جلد لوكس ، داخل خارج على فشوش ، وهو فوق ذلك رجل ودنى ، مرحب بالنميمة ، سـماع لها ، وله اغراض ومحسوبية ، وزميلك المجـاور لك بلطجى يتمارض كذبا ويخرج من أجازة مرضية ليدخل فى أجـازة مرضية ، يطلع لسانه لا للطبيب وحده بل للجميع استهزاء بهم • وبقية العمـال لا هم لهم الا مراقبـة الرؤساء ، ومراقبة بعضهم بعضا ، يتناقلون الاشاعات فتتضخم وتسرى كالنار فى الهشيم ، ووراء الاشاعات بلاغات ، بامضـاء ودون امضاء ، وهم فوق ذلك ينقسمون الى شـلل ، تتجاذبك ، واذا أردت النجـاة من صراعها عددت منبوذا ، والمصنع ذاته هرجلة فى هرجلة ، مـال سايب ليس له صاحب •

فهل تريد أن تصلح الكون وحدك ، فلا تشقى نفسـك ، غطرش ، ابذل أقل جهد ممكن ، اشتغل من غير نفس حتى لا تحرق أعصابك ، تظـاهر بأنك تؤدى واجبك ، المهم أن يحكم من يراك أنك غير مقصر •• وأنك ستقبض مرتبـك آخر الشـهر بغـير خصـومات •

أقول لهذا العامل انه واقع فى خطـأ كبير مدمر له •• وأحب أن أبدأ بمحاسبته هو مثلما يحاسب غيره ، وهذا عدل ،

ينبغي أن لا يغضب منه ، فهذا الحوار بينه وبين نفسه شاهد بأنه هو ذاته غير برىء من بعض العيوب التي يتهم بهـا الآخرين ، فالظاهر أنه يشغل نفسه ـ اضرارا بعمله ـ بمراقبة من حوله ، والتسمع للاشاعات ، ومسارعته الى سوء الظن ، والى التهويل • لا نتيجة لمطالبته بالأحسن الا أن يصبح الحسن في نظره سيئا ، والذنب عنده أوضح من العذر •

وحتى لو كان بريئا من العيوب التي يتهم بها الغير وصدق كلامه فان الخطر ينبع من مصدرين : الأول قلة صبره ، ومسارعته الى الوقوع في هذه الأزمة النفسية واعتباره لها مرضا لا شفاء منه ، فكل الظروف التي يشكوها عارضة ، لأن الخلل لا يعيش ، لابد له أن ينكشف ، ستنطلق صـفارة الانذار يوما من تلقـاء ذاتها ، رغم أنف الجميع ، المدير الفاسد سيأتيه من يخلعه عن مقعده ، العامل البلطجي سيتدهور حاله لأن المرتب الذي يقبضه آخر الشهر مال حرام ، ليصرفه في الحشيش أو القمار ، ستنبعث من ضمير الأمة المتلهفة على تحقيق النصر ، ومن تساند بقيـة الأجهزة الصالحة يد خفية تمسك بتلابيب هـذا المصنع • هـذا يوم آت لا ريب فيه ، ولعله أقرب مما يظن ، فاذا لم يتغلب على أزمته النفسـية فانه سيكون من بين القمـامة التي ستجرفهـا المكنسـة •

والمصدر الثاني هو سوء فهم لنعمـة العمل ، فان أزمتـه

النفسية تهدرها . أحب له أن يركز همه على شيء واحد : هو أداؤه لعمله ، وفاء لحق الشكر على هـذه النعمة على الأقل ، لا شأن له بغيره ، ان يده على هـذا المصـنع هي يد المـالك لا الأجير ، وبقية الملاك هم أسرته وأقاربه وجيرانه وأبناء وطنه ، فاذا لم يؤد واجبه فانه سيلحق بهم الضرر جميعا ، ولو ثبت ولم يتزعزع توفرت له ثقته في نفســه وزادت مع الأيـام ، سيحس بصوت في داخله يحثه على التقدم ، للانتفـاع بكل وسـائل التدريب المهني في ساعات الفراغ ، سيصبح في يوم من أعمـدة المصنع ، سيجد نفسه في لجنة العشرين ، ثم في مجلس الادارة وربما أيضا في مجلس الأمة . ان العناصر الصالحة هي التي يكتب لها البقاء والنمو .

(« التعاون » ، العدد ١١٨ ، ١٩٦٥/٥/٢٣ ، ص ١٠) .

جيـــل ضـــائع ..

الكلام هـــذه المرة عن جيل ضائع لا يلقى ما يستحق من الالتفات ، جيـــل الأحداث الذين يشقون فى المدن فى دكاكين الورش والمطـــابع اليدوية وعند أرباب المهن الصغيرة كالبقالين والحلاقين والسنكرية والنجـــارين والحـــدادين والبسكلتاتيـــة ومحال تصليح السيارات وأضرابهم ، قد وجد الأحداث الذين يعملون فى المصانع الكبيرة حماية لهم بفضل القانون ٩١/١٩٥٩ . وكذلك وجد الخدم الأحداث (وان ظلوا هم والخدم الكبـــار محرومين من كل حماية تشريعية) من يسلط عليهم أحيانا بعض الأضواء وبخاصـــة فى أعقاب نشر الصحف لمثل جديد للنكبة

التى تتكرر بصـــورة مذهــلة ومقززة للنفس : نكبــة تعذيب أصحاب البيت ، وفى مقدمتهم الست الهانم ، للخادم الحدث بنتا أو ولدا ، ألجأته الأيام السود اليهم فكان نصيبه الضرب والكى ، والحبس والتجويع ، فيهم من يمــوت وهو يصرخ فيسمعه الجيران ومنهم من يقفز من النافذة فى صمت ٠

أما الذين أتحدث عنهم فهم فى دائرة الظــل والنسيان ؛ قلبى حامل همهم من قديم ، منذ أيام الطفولة ، حقا كنت لا أسلم فى المدرسة الابتدائية من ضرب مؤلم بالمسطرة على ظهر أصابع مقشفة فى عز البرد ، أو بالصفع الذى يرن على صرصور الأذن كأجراس الكنائس ، ولكنى كنت مع ذلك ألهج بحمد الله أننى من الأفندية ببذلة وطربوش ، فلم أنشأ فى الحياة فأجد نفسى بجلابية وطاقية أعمل صبيا فى دكان ، لا لضعة المهنة ، بل للعذاب الذى كان يلقاه ــ ولا يزالون ــ هؤلاء الصبية المساكين ، كأنهم وقعوا غفلة فى يد من لا يرحم ٠

كيف أنسى صبى البسكلتاتى الســاكن تحتنا ، لا يزيد طوله عن شــبرين ومع ذلك كأنه الزنبرك ، يجىء فى البدريــة متسخ الوجه والثوب واليدين ليفتح الدكان قبل قدوم المعلم بسلامته ، فيمسح ويغسل الدكان ، ولا ينقطع عن العمل بالركل والضرب الى ما بعد العشاء بكثير ، لا يكف عن نفخ العجل وهو يلهث ، عن تثبيت البلف بعد بله بريقه ، عن تركيب الجنزير

المخربش لأصابعه ، عن عدل الجدون بضم العجلة الأمامية بين فخذيه ، عن توصيل البسكليته وهو يركبها على الرفرف الخلفى لأن ساقيه ، لا تبلغان البدال ، ليس عنده لحظـــة واحدة يشم فيها نفسه ولقمته مغمسة دائما فى الشحم والزيت •• شبيه به صبى دكان تصليح السيارات •

صبى المطبعة فى الحارة المجاورة ، قابع فى ركن مظلم داخل حاصل لو سكنه حمار لنفق ، صاحب المطبعة يبخل أن يشترى آلة رخيصة لتطبيق الفرخ الكبير الى ١٦ صفحة صغيرة ، فأحال هذا الوليد المسكين الى آلة لا تكف عن الدوران ، بل ان الذراع الحديد أقل سرعة من ذراع اللحم •

صبى الحلاق صب على هيئة تمثال من الذل ، عليه كنس الشعر ، وغســيل ماعون رغاوى الصــابون ، ونش الذباب ، الويل له اذا سئل « أين المقص ؟ » أو « أين الموسى ؟ » أو « أين الصابون ؟ » فتأخرت يده لحظــة واحدة عن أن تمتد بالمطلوب، كأنه حاوى مدقدق •

صبى البقال الذى يعمل من النجمة الى نصف الليل ، ومثله صبى الترزى والجزمجى •• وبقية الشــلة التى وقعت من قعر القفــة •

لم يكن حمدى لله أننى لست صبيا فى دكان يرجع فحسب الى النجاة من أبو نيه الضرب باليد ، أو الركل بالقدم ، بل — وهو الأهم — من الضرب باللسان ، فكل صبى لابد أن يأخذ فى جنبه كلاما كالسم ، وربنا فلاحتك ، يعنى حضرتك فالح قوى ، يا خيبه بالويبة ، يا منيل ، يا مدهول ، داهيتك تقيلة ، يا مغفل ، يا أعمى ، يا أطرش ، اشمعنى ساعة الأكل شاطر قوى تقولش اكسبريس ، الى آخر هذه المواويل والتواشيح .

يا لها من حلقة مفزعة جهنمية لا تجد من يكسرها ، المعلم كان صبيا فلقى من العذاب ما لا ينساه ، فكأنه حين كبر واشتغل واستخدم صمم أن ينتقم للقسوة التى عاناها بقسوة أشد على الصبى الذى وقع فى يده .. وكان الاعتقاد السائد أن الصبى لا يفلح الا بالضرب والتعذيب ، وأن القسوة عليه شفقة به .. كلام يجعلنى أود لو مزقت جميع القواميس التى عندى .

اذا لم نستطع أن نفعل لصبيان الدكاكين شيئا فقد يكون الحل — يا لها من متناقضات مؤلمة — هو افتراض كشكشة الحماية التى يمنحها القانون للأحداث فى مواجهة المصانع الكبيرة من حيث قيد السن ، بأمل أن تمتص هذه المصانع عددا كبيرا من هؤلاء الأحداث الضائعين فى الدكاكين — كما حدث نوعا ما فى نطاق الخدم ، فمهما أصاب هؤلاء الأحداث فى المصنع فانهم

سيكونون فيه أحسن حـالا •• انهم طبقا للقـانون لا يعملون الا ٦ ساعات وبشرط أن لا يمتد العمل أكثر من ٤ ساعات ثم تليه استراحة •• انهم لن يكونوا فى قبضـة رأسمالى بغيض ، ولكن فى رعاية دولة اشتراكية •• وأظن أن وزير الاقتصـاد سيرحب بهذا الاقتراح قبل وزيرة الشئون الاجتماعية •

ولكن الى أن يحدث تحقيق لهـذا الاقتراح المستحيل ، لى كلمة أريد أن أوجهها الى اتحاد نقابات العمال ، اننى لا أود لها أن تقفل نفسها على نفسها فى أنانية ينكرها الميثاق ، لا ترعى الا مصالحها ، ينبغى أن يكون لها نشاط جانبى يراد به النفع العام •• واشاعة الخير ، واذا كانت لدينا جمعية ـ وان تكن كسيحة ـ للرفق بالحيوان ، فاننى أقترح على اتحاد نقابـات العمال انشاء جمعية لرعاية أحداث الدكاكين ، هى التى تحصر عددهم ، وتعرف أوجاعهم ، وتدافع عنهم بقدر الامكان وتسعى الى استصدار التشريعات اللازمة لحمايتهم ، فمن أولى بهؤلاء الأحداث من العمال ؟ !

(« التعاون » ، العدد ١٣٦ ، ١٩٦٥/٩/٢٦ ، ص ١٠) •

الجـرائر والأعـذار

حين يعلق فلان لافتة صغيرة بجانب باب العمارة وأخرى كبيرة فوق شرفة شقته يكتب فيها تحت اسمه ــ مثلا ــ « طبيب أمراض باطنية » ، يدعو الناس بهما الى اللجوء اليه والثقة به فان الامتحان الذى اجتازه بنجاح قبل نواله شهادته فيه ماتقدر عليه الامكانيات الانسانية من قدر معقول من الضمان بأنه ملم بأصول مهنته ، والسوق ــ ولمــاذا لا أقول والحظ أيضا ــ هو الذى يفرز النبغاء ــ عن موهبة أو مضى فى التحصيل من الذين تقف قدراتهم عند هذا القدر الأدنى المعقول ولا تتجاوزه ، والطبيب من هــذا الصنف الأخير فى أوربا هو طبيب الحى الذى

يقيم فيه ، قياس عدد زبائنه ليس بالأفراد بل بالعائـلات ، لأنه يعالج الجد والحفيد فيها معا من عللهم الطارئة ، ولكنه يقف عند حد الأمراض الصغيرة ، والسهلة ، البينة ، فاذا عرضت له حالة عصيبة رفع يده عن العلاج ونصح الأسرة بأن تلجأ الى اخصـائى من النبغاء وأرشدها اليه •

ولكن الناس كما تعامل الأطباء والمهندسين المعماريين وباقى أرباب المهن التى لا تبدأ مزاولتها الا بعد اجتياز امتحان ، تعامل أيضا ـ وعلى نطـاق أوسع وأكثر تكررا وبعلاقة أشد لزوما ـ طوائف عديدة من أرباب حرف أخرى ، نسميها الحرف اليدوية ، كالنجارين والمنجدين والسباكين والكهربائيين الخ الخ •• فما هو الضـمان بأن الواحد منهم حين يفتح دكانه ويعلق لافتتـه ملم بأصول مهنته بالقدر المعقول ، كمن ذكرت من قبل ، ولا فرق بين هؤلاء بشهادة هـذا الاسكافى الذى عرفته فى صباى جالسا تحت بواكى شارع محمد على بجانب لافتة تقول « طبيب الأحذية » •

كان هذا الضمان متوفرا عندنا أيام تجمع كل طائفة فى سوق وتحت رياسة شيخ ، يحشدها وراءه فى موكب الرؤية ، وصبى الدكان يتدرب على مهنتـه تحت اشراف من المعـلم لا يخلو من قسوة تبلغ حد الضرب ، ولا يحصل على شهادة التخرج ـ طبعا شـفوية ـ وعلى حق الاستقلال •• الا بعد أن يجيزه هـذا المعلم ويرضى عنه الشيخ بعد تقبيل يده •

وتحللت هذه الطوائف بطى صفحة القرون الوسطى وفتحنا مدارس صناعية عديدة لتخريج أرباب هذه المهن بأمل أن يدخلوا السوق ويقضوا للناس حاجاتهم بكفاءة ، ولكنهم بسبب طغيان سحر كلمة الأفندى وهبوط سعر كلمة « عامل يدوى » فى نظر المجتمع تسللوا جميعا الى وظائف الحكومة ، وبقى السوق بوابة بلا بواب ، ليس فيه ضمان بتوفر القدر المعقول من الخبرة .

أكتب هذه الكلمة بعد أن استمعت الى شكاية مريرة — لا ريب أنها شكايتك أيضا وشكاية كثير من الناس — قال لى أنه اضطر أخيرا بسبب العزال أن يعامل فى فترة وجيزة حشدا كبيرا من هؤلاء الحرفيين ، فاذا بمن قال عن نفسه انه كهربائى قد حرق له ثلاجة ، ومن قال عن نفسه انه سباك زعم أنه أصلح له السيفون فاذا به بعد ساعة واحدة يعود للتعطل ، ومن يقول عن نفسه انه منجد ترك مرتبته ملأى بالكلاكيع ، والخياطة سراجه ، انهم غير مؤهلين لأداء عملهم سواء من حيث قصور المامهم بأصول مهنتهم ، أو قصور رعايتهم لشرفها وتقاليدها ومبادئها الخلقية .. أصبح الفوز بالنابغة بين هؤلاء الحرفيين من قبيل الصدف ، أو بعد أبحاث ميدانية تسأل فيها عنه الأهل والأصدقاء والمعارف .

أضف الى عناء صديقى عناء المساومة على الأجر ، قليل جدا من الخدمات يتراوح الآن فيها الأجر بين فروق شاسعة ، أما أجور هؤلاء الحرفيين فمتروكة لمساومة مهينة ومرهقة للطرفين ، وبلا ضابط .

من الانصاف أن تتلمس لهم الأعذار المشروعة ، وتنطق بلسانهم حتى اذا لم يفتحوا فمهم ، فلك أن تقول أولا ان معظم الناس لا يستبشعون استغلال جهدهم بلا مقابل معقول ، يبخلون عليهم بالقرش الذى يصرفونه فى الهلس عن طيب خاطر ، قد يؤدى كأنه خدمة أخوية ، يكفى أن تقول لمن أسعفك : شكرا يا بطل ، لا يقدرون قيمة جهد العامل أو وقته واعتماد رزقه على مثل هذه الخدمات الصغيرة ، وقد تقول ثانيا : ان هؤلاء الحرفيين ليست لهم نقابات تحدد ساعات فتح الدكاكين وتسعيرة الأجور وتوفر لهم مطالب الضمان الاجتماعى عند المرض والشيخوخة ، وقد تقول ثالثا : ان كثيرا من المواد الخام تنقصهم وكثيرا من المواد المصنوعة لا تسعفهم ، ذراع السيفون خرع ، والسدادة غير مقاسة على الثقب ، والصنبور القديم يربط أحسن من الصنبور الجديد ، والمسمار لا تعرف رأسه من ذيله ، والقفل مفكك وهكذا وهكذا ، اذن وصلنا الى شىء يشبه الحلقة المفرغة ، لا ندرى الحق مع من .. مع هؤلاء الحرفيين أم مع صديقى الشاكى الباكى ؟ .

(« التعاون » ، العدد ٤٠٥ ، ٢٢/١١/١٩٧٠) .

مشية السمكرى والشكل والمضمون
ودكان العطـار

أول دكان فى القريــة فتحه شيخ أقعده شىء من الربو وشىء من المسكر والكسـل عن الخروج مع رجالها وشـبابها للصـيد ، وكره أن يبقى فى الدار لئلا تأمره زوجتــه بغســل الصحون وتهشيك ولد مفعوص ، وقال لقومه : أنتم تعودون فى المساء متعبين وتقضون ساعات من الليل منشغلين فى حـك رماحكم استعدادا للغد ، فسلموا نصفها الى فى الصـباح وأنا أنوب عنكم فى بريها ، وهكذا دواليك ، على أن يكافئنى كل واحد منكم بشىء من قنيصته . الفخذة أو السقط أو الفروة ، كل حسب جوده ، لا فرق ولا تكليف بيننا ، وهكذا نشـأت

أول مهنة عرفها الانسان : مهنة « نسن السكين نسن المقص » ، ولايزال أحفاده يجوسون شوارعنا ومعهم حجر موروث عنه •

ثم بدأ يغرى كل امرأة لم تشبع لأن زوجها خاب فى صيده بأن تأتى له بصرة من القمح أو قصعة من عجين مشطوفة أو خرزة زرقاء فيها وقاية من العين لتأخذ بدلا منها قطعة من اللحم المكوم عنده ، فامتلأ الدكان بالبضائع ونشأ أول سوق انحدر عنه الى أيام صباى « سوق العصر » الذى كان يقام بجوار سجن قرة ميدان •

وبعد قليل كانت تقصده امرأة بدجاجة لتأخذ بدلها هـذه الخرزة الزرقاء التى استلفتت نظرها فى ذهابها ومجيئها أمـام الدكان ، وجاءه رجل مع رمحه بنعله وقال له : هـذا للسن وهذا للترقيع • ولم تمض أيام طويلة حتى كان صاحبنا هو الذى يحلق اللحى ويخلع الضروس ويروى للناس بالليل اذا اجتمعوا عنده (أصبح الدكان ناديا أيضا) حواديت عجيبة عن بطل القبيلة جدهم الأكبر ، وكيف كان يوالس الجن ويصـنع المعجزات ويحطـم الوحش والأعداء ويحنوعلى الضعفاء من أهله ، فكان الدكان صورة مصغرة جامعة لحياة أهل القرية كلهم ، لغته هى لغتهم ، ليس لديـه أسرار ولا طقوس ، البضـائع كلهـا معروضـة ، والمعاملة على المكشوف ، ان بقاءه فى الدكان لا يرجع الى علم يفوق علمهم ، بل لأنه عاجز عن الخروج للصيد مثلهم •

وصحا فى يوم نحس فوجد جارا قد نهشت الغيرة قلبه قد فتح دكانا أمامه وأعلن أنه سيصبح من أهل الاختصاص فلا شأن له بمعالجة الرماح أو ترقيع النعال بل سيقتصر على حلق اللحى وحدها لأن أصابعه لا ترتعش مثل أصابع هـذا الشيخ الذى جمع سبع صنائع فى يده فلم يحسن واحدة منها ، وقال لأهـل القرية : ماذا تحسبون ؟ ان هـذه مهنة جليلة ، لها أسرار وطقوس علمها له وحده جدهم الأكبر فى المنام ، وهداه الى طلسم مدفون من ملكه مضى دون سائر البشر بعلم هـذه المهنة ، فرأى الناس لأول مرة حلاق يخطف مقصه اللامع أبصارهم وهو يعمله مرة واحدة فى شعرهم وعشرين مرة فى الهواء ويسن الموسى على راحة يده فلا يجرحها ، ويسـأل الزبون : عاوز نمرة زيرو ولا نمرة ثلاثة ، ووش واحـد ولا اثنين ، كلمـات جديدة سمعتها القرية لأول مرة ، كانت من قبل يحلق أهلها رؤوسهم زلبطة عند الشيخ وهم راضـون ، يحسـبون أن هـذا آخر ما يصـل اليه فن الحلاقة ، أصبحت للحلاق الجديد المختص صنعة يشق تقليدها فى دفس الفوطة حول الرقبة ، وامالة رأس الزبون الى الوراء بلمسة رقيقة من أصبع يزغزغ دقنه ، وتوزيع رغاوى الصـابون بقوام وقدر معلوم ولا ينفض يديه الا اذا وثق أنه حلق الجانب الأيمن للرأس على رسم يطابق جانبها الأيسر ولو انخلعت رأس الزبون من شدة لويها من الجانبين ، وآمن الناس أن الحـلاقة مهنـة

مرهوبة الجانب وأن ليس كل انسان يصلح أن يكون حلاقا .

***

وامتلأت القرية بالدكاكين وصارت مدينة ، أصبحت المهن احتكارا ، أقيمت بينها الحدود الصارمة وتوزع الاختصاص ، وتصالح أهلها على احترام مواثيق غير مكتوبة تقضي بأن لا تعتدى مهنة على أخرى ، ولكن المنافسة والخوف من غزو يأتى من الدخلاء حمل أرباب كل مهنة على المغالاة فى احاطتها بطقوس ما أنزل الله بها من سلطان ، وعلى وضع قاموس خاص بها ثم تضخيمه بسرعة وابعاده ما أمكن عن مألوف كلام الناس حتى يكون بمثابة الشفرة التى لا يفهمها الا أرباب المهنة وحدهم ، لها رهبة الأسرار أو لغة الجان ، ان لم تصدقنى فاذهب اليوم الى حى الصاغة واستمع الى الحديث المعلن بين تاجر وتاجر فلن تفهم شيئا مع أنهما يتكلمان بالعربية ، بل امتد هو سهما بالاحتماء وراء شفرة أخرى بينهما وبين صبى القهوجى يعرف منها اذاقيل له « هات قهوة » اذا كان الكلام صدقا أم ضحكا على الدقون ، الترزى ما يكاد يلبسنى البدلة فى البروفة حتى يمزقها حتتك بتتك ، أقول له فى سرى حاسب ، حاسب ، فيجيبنى جهرا :

ـــ ايش عرفك انت .

علامات بروة الصابون أشبه بحروف لغة هيروغليفية لا يفهمها أحد الا هو وصبيانه ، ليست المسألة سهلة أو لعبة

كما أتصور • كل سمكرى يمشى متبخترا وهو يحمل صندوقه مشية الساحر الذى سيدهشنا باخراج بيضة ملونة من فمه وزوج أرانب من جيبه ، الطاقية التى ينفرد بها أسطوات الطهى ــ كأنما لولاها لما أحسنوا قلى بيضتين ــ هى فى نظرى أفضل رمز لهذه الطقوس فهى تجمع بين الوقار والبهلوانية وبين الامتلاء والفراغ ، بعض المهن تقلب الأوصاف رأسا على عقب ، فالبفتة من صنف « فاخر المفتخر » عند بائع المانيفاتورة هى أحط أنواعها ، وبعض المهن يصطنع نظاما للعد لا يجوز على غيره فالألف رغيف عند الفران معناها عشرون لا غير •

ما أشبه هذه الطقوس بفحيح القطط حين تتقابل على السلم ، ليس بينها نزاع على فأر أو عظمة ، ولكن تظل كل واحدة تكشر للأخرى عن أنيابها وتزمجر فى وجهها وتنفش لها شعرها وشواربها حتى تلازم حدها وتعلم أن الله حق وأن الأدب مطلوب، وتزداد القواميس انفرادا وتضخما والغازا عند المهن التى تعتمد على النظر العقلى لا العمل اليدوى ، وهى معذورة لأن صنعتها كلام فى كلام ، لن أحدثك عن الفلاسفة وشطحات الصوفية وطلاسم أبطال علم الكلام وشقشقة فقهاء القانون • فهذه كلها تعميات تفوق فهم البسطاء أمثالى وتصدهم عن اقتحام المهنة على سبيل الهواية لا الاحتراف ، ولكن دعنى أكشف لك سر قاموس تصطنعه مهنة أنا بها خبير ، مهنة رجال السلك الدبلوماسى

وقريبة منها مهنة المعلقين على الأخبار . فقد كنت أثناء اشتغالى فى السفارات أبعث لوزارة الخارجية ببرقيات رمزية تبدأ هـكذا : علمت من مصدر موثوق به أن الدوائر العليمة الخ .. فالمصدر الموثوق به صـديق قابلته على القهوة ولعل الخمر كان قد فك لسانه قليلا ، أما مصـدر الخبر فهو صحيفة يوميـة يقرأها كل الناس ، ليس هناك دوائر عليمة ولا دياولو .. ولكنى كنت حين أكتب البرقيات بهذه الصيغة المليئة بالأسرار أحس بافتخار شديد لأن لمهنتى طقوسا وقاموسا وشفرة خاصـة ، وحين أقرأ الآن من هذا الكلام عن بلدنا أظل أدور فى شوارع القاهرة أبحث عن هذه الدوائر العليمة فلا أجد من الدوائر الا مبنى الاذاعة .. وهى تعلن أخبـارها على رؤوس النـاس جميعا .. لمـاذا لا يجدد المراسلون الصحفيون فيقول واحد منهم مثلا : علمت من المثلثات أو المربعات العليمة ... ؟

وليعذرنى أئمة النقد فى بلدنا ـ ومقامهم عندى على العين والرأس ـ اذا قلت اننى اذا جلست اليهم واستمعت الى جدلهم الطويل عن الشـكل والمضمون والواقعيـة والطبيعية والرمزية والمستقبلية والرومانسية والكلاسية دارت رأسى وأحسست أننى أغرق فى لجة من ألفاظ ضخمة تدور حول الحق دون أن تهتدى اليه . ألا يعلمون أن هـذا كله طقوس زورها عليهم أصـحاب الأنياب الزرق من أرباب مهنة النقد ؟

ندخل الآن فى الجد حين تصاب الأمة بالضعف والوهن ، وتفقد ثقتها بنفسها ويفقد الناس ثقة بعضهم ببعض تتفشى الوقيعة والنميمة والدس وكتابة العرائض المجهولة حتى ضد رجل تطوع لوجه الله وبدون أجر كالمسحراتى أن يعلن حلول موعد الافطار فى رمضان (بعد تأكيده شرعى) باطلاق مدفع من عنده من فوق سطح منزله (العريضة المجهولة تقول ان المدفع بدون رخصة ـ لاشك أن كاتبها صائم) حين يحدث هذا كله تنقلب طقوس المهن الصغيرة من تكشير أنياب القطط وفحيحها (فهذه خلة الشجعان) الى احتماء الجرذ ببيت له مائة مسلك ، وليكون هم ابن المهنة هو اقامتها لا على نظام تلحظه العين بل على فوضى يعرف هو وحده أسرارها ، ظانا بذلك أنه يحميها عن العيون والأخطار لا أنسى دكان العطار الذى كان فى حينا ، لو غاب عن عمله وحل آخر محله وسألته أن يبيع لك بقرش ملحا لمضى يفرز الدكان من أوله لآخره واشتغل من الصبح للعصر ثم قال لك ووجهه يتصبب عرقا : استنى لما يجى صاحب الدكان ، فالفوضى هى أكبر تأمين عندهم من السرقة والدخلاء ، كم من موظف فى الحكومة ينحدر من صلب هذا العطار ، الفوضى هى أيضا عنده ضمان من أن يقفز غيره على وظيفته فيحتلها .

أعتقد أن سر البلبلة التى تعانيها الانسانية اليوم راجع الى تفتت العلم الى مهن تعيش كل منها فى قمقم ، محتمية بقواميس تتكلم بلغتنا ومع ذلك لا نفهمها ، والى أن الثرثرة حول الطقوس الفارغة لكل مهنـــة تفوق بكثير الكلام المختصر المفيـــد الذى يكشف عن وجه الحق ، ويخيل الى أنه سيـــأتى على يوم اذا ذهبت لطبيب أشكو له ألمـــا فى أذنى اليمين أجابنى : آسف أنا مختص فى الأذن الشمال !

(* « المساء » ، ١٩٦٢/٢/٢٦ ، ص ٨) .

فيلم تسجيلى قديم جدا

لم يكن للعمـــال من حولى فى صباى الا مفهوم واحد : انهم أربــاب الحرف الصغيرة التى يكسبون رزقهم بالعمـــل اليدوى فى دكان يستأجره ويشتغل به فرد واحد • ليس عندهم آلات وليدة عصر الصناعة ، بل « عدة شغل » بدائية •• هم الذين كانوا يضفون على القاهــرة طــابع مدينــة العصـــور الوســطى •

كل سائح أجنبى يأتى لبلدنا حينئذ يسره أن يتوهم أنــه أصبح يشتغل بالكشوف الأثرية ، فهو يأخذ صورة فوتوغرافية

لأرباب هـذه الحرف الصغيرة باعتبارهم حفريات بشرية ..
يستوقف نظره أن أغلبهم يعملون أيضا بأقدامهم ، المكوجى العربى يستخدم قدمه اليمنى وهو منحنى الظهر عليهـا ، كأنه تنين آدمى .. ولكن بدلا من أن يبخ النار من فمه فانه يبخ دشا من المـاء يطرطش على الدكان كله ويلمع فى عتمته .

ومبيض النحـاس يحك زنجرة الطشت والحلل الكبيرة بالرماد بقدميه وهو غارق لصدره فى حفرة استحدثها فى ركن دكانه جسده يدور نصف دورة (رايح جاى) كأنه فى حلقـة ذكر .

وكذلك صاحب السيرجـة .. له أيضـا حفرة فى ركن دكانه .. يعصر فيها الحبوب الزيتية بقدميـه (السمسم وبذر الكتان) لا يدور بل يتواثب كأنه يطـأ على جمر . البدانة عون وعبء معا . عون لأنها تزيد من قدرة الجسم على الضغط ، وعبء لأنها تزيد من العرق الذى يتصبب على الوجه .. ولا أقول من القدمين أيضا .. فهذا كان هو الأمل وأنا آكل من عنده قطعة من الكسب (بضم الكاف) ، الفم ملتذ بالطعم والذهن غير منشغل بحكاية العرق هذه .

والخراط يشتغل بقدميـه وهو جالس أكثر مما يشـتغل بيديه فقدماه ـ بل الابهامان الغليظان النافران ـ همـا اللذان

يسندان ويزحزحان طرف الأزميل البراق كحد السكين • يده اليسرى تمسك من بين الفخذين بالمقبض وتثبت الحد على قطعة الخشب (أصبح الازميل كأنه أيضا من مجارى البول) واليد اليمنى تمسك بعصا رفيعة كقوس الكمنجة ، بدل الوتر دوبارة التفت على الطرف الأيمن لقطعة الخشب ، دوبارة فوق البيمة مهلهلة سريعـــة القطع ، حركة الخشب عند كل جذبة من اليد اليمنى اذا قيست بخط أفقى لا تزيد عن نصف شبر •• صـــنع خشبة درابزين واحدة مشوار طوله خمسة كيلو متر والسائر فيه لا تزيد خطوته عن خمسة سنتيمتر •

كم كنت أقف الساعات أمام الخراط لأستمتع خلسة وأنــا خجل بمنظر قدميه وهما تعمــلان ، أو بالمقتشر وأنا بجح حين أذهب اليه ليصنع لى نخلة ، بقرش تعريفة •

السباك يشتغل بأسنانه ، يجز بها طرف لوح الصفيح وهو يلفه ليصنع منه قسطا للبن •• والقباقيبى والنجار يشتغلان بالفم أيضا ، كل منهما يحشوه بحفنة من المسامير (الكبش) •

من ذكريات طفولتى أننى أردت يوما أن أقلد النجار الذى كان دكانه أمام بيتنا ، فوضعت حفنـــة من المســـامير فى فمى ، لا أدرى كيف بلعت سهوا على الأقل أربعة منهـــا •• تعرضت للموت من تمزق الأمعاء ، ولكن جسد الطفل كان له قدرة على

خرق كل القوانين الطبيعية ، كثير من الأطفال يسقطون من ارتفاع كبير ولا يصابون بأقل أذى . لو كان مكانهم رجل لدقت عنقه .. استطاع جسد الطفل ـ الذى كنت ـ أن يفرز هذه المسامير وكان لاصطدامها بقعر الاناء الصاجى المستدير رنة فرح فى البيت كله . وكانت نجاتى من الموت أعجوبة من الأعاجيب .

وكان صاحب الدكان اذا احتاج الى أجير يعاونه فلا يكون هذا الأجير الا ولدا صغيرا لا يتجاوز الثامنة مثلى حينئذ ، هو صبى المعلم .. كم كانت تهددنى أسرتى اذا لم أفلح فى المدارس أن تجعلنى صبيا لمعلم فى دكانه . كنت أعيش فى رعب دائم من أن يكون هذا مصيرى .

***

والعجيب أن الطفولة ـ المفروض أنها بريئة حلوة ـ كانت ـ لا الفقر ولا الغلب (بضم الغين) ـ هى التى تشفع لاستعباد هذا الصبى وتعذيبه وامتهان كرامته ، الطفولة بدل أن تكون نعمة أصبحت نقمة .. ومع ذلك كنت أحس بشىء من الجذل الخفى حين أحدس أن كل صبى مستعبد قد نجح بالرغم من الجحيم الذى يعيش فيه أن يجعل من عمله وسيلة للعب ، وكانت عين المعلم تفقس هذا اللعب وتوقع على الصبى من أجله أقسى جزاء ، سب الأب وجدوده ، والأم رمز التهتك الجنسى

والدعارة •• حط لا تشريف نعتها بأنها زوجة الأسد • وبعد السب صفع وضرب وركل بالقدمين •

كم كنت أرثى لهؤلاء الصبية المساكين واستقل برثائى كله صبى البسكلتاتى •• كان أكثر الصبية شقاء وعناء •• لا عجب أن كان أكثرهم اتخاذا للعمل وسيلة للعب • لا يزيد حجمه عن البلية (بكسر الباء وتسكين اللام) ثيابه المهلهلة متسخة ، يداه مسودتان من الشحم ، هو الذى يفتح الدكان اذ قدر الفول المدمس خارجة من المستوقد ، هو الذى يعلو صدره ويهبط مع المنفاخ لتنبعج العجلات التى رقدت • هو الذى لابد واجد ولو من تحت الأرض « البلف » (بفتح الباء وتسكين اللام) الذى يمنعها من التنفيس ، يحك الكاوتش المخروم بالصنفرة •• ويرمه برقعة بالسيكوتين ويمتحنه فى جردل ماء عكر •• هو الذى يعدل « الجادون » ويركب الجنزير ، ويضبط الفرامل ، ويرفع المقعد أو يخفضه ، ويلفق من ثلاث بسكلتات عطلانه بسكليتا ماشية •

ولكن انظر الى فرحه حين يطلب اليه المعلم أن يذهب فى مشوار • ان قدميه اذا جلس على مقعد البسكليت لا تصلان الى (البدال) فماذا يصنع ؟ انه يتعلق بجانب البسكليت كالعلقة ، قدمه اليسرى على البدال الأيسر وقدمه اليمنى نافذة من وسط تجويف الكادر المثلث لتلحق البدال الأيمن وتستقر ــ يا دوبك ــ عليه ومع ذلك تجرى به وهو يدق الجرس بمتعة كبيرة ، فلو دخل

سباقا للدراجات لكسبه • لم أر صبيا شقى من النجمة للعشـاء وناله من السب والضرب والركل مثل هذا الصبى •

ولكن استعباد هؤلاء الصبية جميعا لم يكن يتمثل لذهنى حينئذ بسبب أنهم أجراء ، بل لأنهم أطفـال ، لا حريـة لهم فى الاختيار •• ثم هم يمرون بمرحلة يصلون بعدها الى رتبة المعلم أى الى الاستقلال •

أما استعباد العامل الأجير ــ لأنه عامل وأجير ــ فقد تمثل لى فى أول رجل رأيته يعمـل فى خدمة صاحب دكان ، الدكان دكان دخاخنى ، والرجل مستخدم ليصنع بيده السجائر •• وكانت للسجائر صنع اليد حينئذ سـمعة طيبة تفوق سـمعة سـجائر الماكنة • وكنت اذا رأيت هذا الرجل تمثلت فى ذهنى وأنا وجل لحظة أن يمد يده ليقبض أجره من صاحب الدكان • فهذه اللحظة هى عندى البرهان الأليم للحاجة من جانب وللاستعباد من جانب آخر • اذا أتى الرجل للدكان لا يضمن أنه سيعمل •• فكثيرا ما كان يقال له : اسرح اليوم • أو •• اتمشى لك شوية النهاردة •

وحمدت الله من كل قلبى أن أبى موظف بالشهرية ، لا عند شخص بنى آدم مثله • فيمد له يده ليقبض أجره •• بل عند شخصية معنوية هى الحكومة • وليس للصراف الذى يدفع له

مرتبه أقل فضــل عليه .. وكان دعائى لله أن لا أمد يدى فى يوم لرجل مثله مثلى لأقبض منه أجرى .

لم أكره حينئذ مثلا كالمثــل القــائل . « اللى ياكل عيش السلطان يضرب بسيفه » .

رأيت بعد ذلك مصنعا للسجائر يملكه ملكونيان أمام سراى عابدين . يعمــل به عدد كبير ــ رجالا ونســاء وصبية ــ ولعل صــناعة السجاير كانت أولى الصــناعات عندنا فى استخدامها لعدد كبير من العمــال . ومع ذلك لم يبق فى ذاكرتى الى اليوم الا صورة هذا الأجير فى الدكان .. لو عرضتها لى الآن بين آلاف من الصور لفرزتها لك ، فقد تم بفضلها أول لقاء لى وتأثر بهــذا الجو الانعزالى الاستعبادى الرهيب المقبض الذى كان يخيم حينئذ على العامل الأجير فى بلدنا .. فهل من يذكر ؟ .. هل من يقارن ويحمد ربه ؟ .. ثم توالت أمامى صور أخرى سأحدثك عنها .

الخرابة .. والمصنع

ها أنذا من جديد أستعيد ذكريات عهد مضى عليه أكثر من نصف قرن ، أعترف أن اجترار الذكريات لذيذ .. حلوة أو مرة .. فما بالك بذكريات الصبا الغض فى فم الشيخ الأهتم اليابس .. ولكنى مدفوع أيضا بشعور يخامرنى بأن شباب الجيل الحاضر قد يعلمون أشياء كثيرة عن تاريخنا البعيد .. أما عن تاريخنا القريب فعساهم لا يعملون عنه الا شيئا قليلا . كأنما نظرتهم الممتدة ــ كما ينبغى لها ــ الى المستقبل اذا ارتدت بين

الحنين والحنين الى الوراء قفزت من فوق هـذا المـاضى القريب ـ لأنه وليس المـاضى البعيد ـ هو الذى محنته ، جهرا أو كتيمى ـ هـذه التحـولات الجسيمـة التى طـرأت على المجتمع •• أو قل لعل السبب هو أن الآباء ـ رمز هذا المـاضى القريب هم ـ وليس أجداد الجدود ـ مقصد ثورة الأبناء ، وثورتهم هى الرفض لكل ما يمثله هؤلاء الآباء •

ومن علامات هـذا العصر وهو يتطور ـ جريا لا مشيا ـ أن المـاضى القريب هو عنده أوغل فى القدم والانمحاء والغرابة واللغو من المـاضى البعيد •• ومع ذلك فهيهات أن ندرك حقيقة ما يحدث الا بتذكر ما حدث منذ قليل ، فليس الا هنا تصـح المقارنة •• ويصـدق القياس •• ويختلط النفع بالمتعة وتقوم الشهادة على العيان لا على المنعنة •

فى صباى ـ أى من قبل نصف قرن ـ كان فى الحى الذى أسكنه ـ مثل كل الأحياء القديمة بلا استثناء ـ خرابة •• قطعة أرض اما شاغرة ، سـداح مداح ، تلقى فيها أكوام القمامة •• ويلجأ اليها لفك الحصر •• خفيفا أو غليظا •• واما عليهـا بقية مع أنقاض لا ينفع معها الخيال مهما عربد فى تصور عمرانها السابق الزائل •• ابتلعه الفناء كمـا ابتلع أهله •• ألف الناس هـذه الخرابـات •• لعلهم رأوا أن القاهـرة ينبغى أن تكون رفيقـة بالعفاريت وأمنا الغولة ، فتعد لها وفرة من المسـاكن الصحيـة بالمجـان •

وكانت الخرابة الواقعة أمام دارنا ــ فوق خوف من سكانها ــ رمزا مزدوجا لم أفهمه حينئذ ، الآن أتبينه .. رمز أولا لافلاس نظام لم يكن يعيبه خطل هدفه ، بل فساد تطبيقه .. وأعنى به نظام الوقف .. فهذه الخرائب كانت فى الأعم من الأوقاف .. وكان من النكت الشائعة الرد على المتعجب لخراب بيت بأنه وقف ، وسواء أكان للوقف سند فى الدين أم ليس له سند (فهذه مسألة خلافية) فانه كان من أنبل الأنظمة التى التزم بها المجتمع الاسلامى طواعية لا كرها ، حسبة لله تعالى أولا ، ثم وفاء بحق المجتمع على الفرد .. نبعا من شعور أصيل عميق بالتضامن بين الناس .. غنيهم وفقيرهم .. فقد كان الوقف هو الوسيلة التى تتيح للفرد أن يتنازل عن نصيب من رأسماله للأعمال الخيرية ــ هكذا تسمى ــ ولما كان الوقف شائعا فان المجتمع الاسلامى كان أول من فرض ضريبة على التركات ، اذ كان لا يقوم كتاب الوقف الا بشرط فرز نصيب من العين للاعمال الخيرية قبل انتقالها الى يد الورثة الموقوف عليهم ريع العين .. جيلا بعد جيل .. ولا أبالغ اذا قلت أن ريع الأعيان الموقوفة كان يبلغ فى العصور المتأخرة نسبة لا تقل عن الربع من الدخل القومى ، مخصصة كلها للأعمال الخيرية .

وكان الاستيلاء على هذا الريع هو مطمح كل ولى شرعى فى عصور الانحطاط . اذا لم يستول عليه هو نفسه ، استخدمه فى

افساد الضمائر وشراء ذمم الأنصار (آخرهم فى اغتيال الوقف هو محمد على) • ولكن الحلم الجميل الذى داعب خيال المجتمع الاسلامى لم يلبث أن تحطم على صخرة تفتت أنصبة الوقف بالتوارث ، وغياب مؤسسة قوية تملك رصيدا من رأس المال السائل •• فتسارع الى تعمير الخراب •• وبعد أن كان الوقف نعمة للمجتمع الاسلامى أصبح نقمة وعبئا ثقيلا عليه ، الآن تكفلت الضريبة على التركات بالدور الذى كان معهودا به الى نظام الوقف •• البدل باق •• ان كرها لا طواعية •• السداد مضمون وان اختفى الورع •

الخرابة أمام دارنا هى اذن رمز لافلاس نظام الوقف •• ولم يكن هذا الافلاس الا مظهرا آخر من مظاهر تضعضع رأس المال الوطنى فى ظل الامتيازات الأجنبية والاحتلال البريطانى •• وكانت انجلترا تحتل الموقع الجغرافى وتترك باب مصر — استرضاء للدول الأجنبية — مفتوحا لرأس المال الأجنبى ، أيا كان مصدره •• يأتى للاستغلال والثراء دون أن يدفع مليما واحدا للخزانة العامة •

كان قد تم استيلاء الأجانب على الجهاز المصرفى الائتمانى فى مصر •• وعلى التجارة الخارجية •• صادرا وواردا •• وعلى تجارة الجملة ونصف الجملة •• البيع بالقطاعى وبربح ضئيل متروك لأولاد الفلاحين •• هو أليق بهم وبخبرتهم العاجزة ••

كان محصـــول القطن بعد أن تجنيه يد الفلاح لا يمر بعد ذلك الا على يد أجنبيـــة ، من أول فراز القطن الى تاجر القطن الى مصدر القطن للخارج •

حتى بعض الصـــناعات التمويلية البسيطة وقعت فى حـــكر الأجانب •• كصناعة السجائر •• تكفل بها جمـــاعة من الأرمن واليونان •• وكان أعيان مصر منصرفين الى شراء الأطيان ، واذا أودعوا نقودهم فى البنوك وتبـــلغ أحيانا ملايين الجنيهـــات ـــ فباشتراطهم أن لا يقبضوا عليها فائـــدة •• فكان رأس المـــال الوطنى يستخـــدم لمنفعـــة رأس المـــال الأجنبى ، فاستشرى استفحاله وتوغله •

بدأ الأجانب يشترون الأرض الزراعية أيضا •• وحضرت بنفسى انهيار تجارة الجمال والمـــاوردي ـــ ومن قبلهما مدكور ـــ لتقوم فوق أنقاضها تجارة لليهود من أمثـــال شتاين ، وورمز ، وأورزدي ـــ باك ، وشيكوريل الخ الخ •• كان لابد من انتظار ثورة ١٩١٩ لينشيء رأس المـــال الوطنى أول مصرف مصرى • يمضى بجرأة فريدة لاقتحام ميدان الصناعة •

أقول هذا لأن الخرابة التى أتحدث عنها ، وهى رمز افلاس نظام الوقف وتضعضع الرأســـمال الوطنى أصبحت أيضا رمزا لتغلغل النفوذ الأجنبى فى اقتصـــاديات البـــلد •• فقد جـــاء

فاستأجرها رجل يونانى قصير القامة ، تشع عيناه بالارادة والعزم والذكاء •• وأقام فيها مصنعا للكازوزة •• فكان هـذا المصنع أول لقاء لى مع العامل العربى الذى دعوتك بالتحدث عنه ــ كما سترى فى المقال التالى •

(« التعاون » ، العدد ٢٧٤ ، ١٩٦٨/٥/١٩ ، ص ١٠) •

الفــوارق .. !

ما الذى كان يفرق عنا هذا الرجل اليونانى الذى استأجر أيام صباى خرابة الوقف أمام بيتنا فى دحديرة شارع محمد على من ناحية الرفاعى ليقيم فيها مصنعا للكازوزة .. ما سبب اقدامه وما ســبب نكوصــنا ؟ .. ليس فى الحى كــله ــ فالحى حى شعبى ــ رجــل أجنبى سواه ، قــارب وحيد يشق عباب بحر مجهول غريب عليه ، يهرنى بجدته وتفرده وجرأته .. وجديد ما يفعل علينا .. اقتحامه لميدان الصناعة .. حتى البدائية منها كانت خارج يدنا .. منطقــة حرام مكتوب عليها « ممنــوع الدخول » .

كنت منجذبا الى تأمله ولو من بعيد ، شأنى مع بعض المخلوقات العجيبة فى حديقة الحيوان . كان أول خواجة يقع فى شبكتى .. انه رجل قصير القامة ولكن جسده كالوتر المشدود .. لا تهدأ له حركة .. تشع عيناه بالارادة والعزم ومعرفة لماذا يفعل ما يفعل .. صفات يزيد من وضوحها وتضخمها عندى ما يعم حولى من حياة تميل الى الوداعة ـ بل الى التمهل والرخاوة .

ولكن الفارق الأهم هو ما أحسست به عنده من النجاة من هذا التمزق الباطنى الذى يتكتمه حيثا من تحت سطحه ، تمزق بين الرضا بالقدر والخوف منه .. رحيم وبعبع معا .. كأن كل معالجة له جرأة تستحق العقاب .. تمزق بين مطالب دين ومطالب عصر حديث .. كل قضية من قضاياه تحتاج الى فتوى .. وكل فتوى فيها قولان .

ولكن أخفى وأصدق فارق لفت نظرى اليه هو احساسي بأنه ينفرد عنا بأنه مستريح فى ملبسه ، البذلة أم قميص وكرافتة ومعها قبعة . كأنها جميعا مفصلة له وهو مفصل لها .. أما نحن فى البيت فكان لنا عند الخروج زى مثله ، وان حل الطربوش محل القبعة .. ومع ذلك كنا نبدو لرقيب خفى فى ضمائرنا بأننا غير مستريحين فى ملبسنا ..كأنه مفروض علينا .. لم نتعوده ..

بل كان يقال لنا أنه لا يلائم جونا •• ومما زاد من قلة راحتنا داخل ملابسنا هذه أنها تتباين وتتصــادم مع أزياء أخرى لا عدد لها بين طبقات الشعب • حتى ليقال ان الفرد منا يلبس أى شيء تقع عليه يده فى الصباح •• هو وحظـه •• الجبة ــ القفطان ــ الكاكولا ــ الجلابية فردا ــ الجلابية وفوقها جاكتة ــ الجلابية وفوقها معطف ــ الجلابية وفوقها عباءة •

حتى غطاء الرأس مختلف ، اللبدة من صـوف فاتح مرة • داكن مرة ــ الطاقية البيضاء ــ اللاسة (من حرير شاهانى اذا كانت لمعلم قد الدنيا) طربوش الأفندية : طويل متماسـك حول خوصة •• طربوش الباشوات أ قصير رخو بلا خوصـة (انظر صورة نوبار باشا أو شريف باشا أو الخديو اسـماعيل) •• طربوش البدوى أبو زر طويل يغطى القفا •• عمامة المشايخ •• عمامة السنى أم عذبة •• عمامة الصعايدة كأنها لفة من خراطيم المطافىء •• الشيخ توفيق المقرىء يلبس طربوش الأفندية ومن حوله شال عمامة ، أضف الى هـذا لابس العقال ــ اما أسود سلت أملط واما ذهبى منقوش معقد •

كيف كنت تطلب منا أن نستريح ونحن نشارك فى هـذه الفوضى ؟ • حقا اذا لم تكن راحة الملبس فلا راحة فى الفكر •• كما كان جسـدنا يحجل كالغراب كان فكرنا يحجـل كالغراب أيضـا •

ولكن دعك من هذه الفلسفة كلها ، الفارق بين هذا الخواجة وبيننا أن له واحدا من أبناء جلدته أو من أبناء الحضـــارة التى ينتمي اليها يشتغل باستيراد آلات الكازوزة ، بل يكاد يحتكرها فهو أسرع منا الى التفاهم معه وربما بلسانه ، وأقدر منا على عقد روابط الود معه ، بحيث يتلقى منه النصيحـــة النافعـــة ، فلا يضره أو يغشه ، لأنه يعلم أن مصلحة المهاجرين تقف على الترابط والتساند بينهم ، ثم ان صاحبنا اليونانى هـــذا يعرف دوننا أين الطريق الى البنك الأجنبى الذى اذا طلب منه قرضـــا لم يرفضـــه واكتفى منه بأقل ضمان ، ومال القرض من ودائع المصريين ـــ من دقنه وافتل له ـــ وهو فوق ذلك آمن بأن سلطات الاحتلال ستضع اسمه بين قائمة الموردين للجيش البريطـــانى ، من أجل ذلك كتبه على ســـدادة الزجاجة وعلى الورقة الملصقة فوقها بالأحرف اللاتينية لا العربية ، ومن أجل أن لا يدفع هذا الخواجه وأمثاله مليما واحدا كضريبـــة مباشرة كانت الضرائب كلها (فيما عدا ضريبة الأرض والمبانى) ضرائب غير مباشرة ، أى يتساوى عبؤها على الثرى والفقير .

حقا انه بفضـــل اشرافه الدائم على المصـــنع وعمله أحيانا بيديه فيه ، اســـتطاع أن يصنع لنا كازوزة طيبـــة ، تسعفك فى ساعات القيظ حينما تستيقظ بعد القيلولة (نوم العوافى) ، بعد غداء من الملوخية بالتقلية ، ولا تلبث بعد أول جرعة حتى تتجشأ

(صحة وعافية) ولن يخيب توقعك لأن الخواجة محافظ على مستوى الكازوزة ، كأنما شرفه مستمد من شرفها .

وحقا أنه فتح باب الرزق لأناس عديدين ، عمـال مصنعه ، وسائقى عربات النقل ، وأصحاب الأكشاك الخشبية فى نواصى الميادين ، ولكن الظاهرة العجيبة التى فتحت عينى بدهشـة على طبيعة العلاقات بين أصحاب رأس المـال والعمال فى ذلك العهد أن هؤلاء الناس رفضـوا أن يرتفعوا حتى الى المستوى الخفيض للعمال ورضوا لأنفسهم أن ينزلوا من هـذا الخواجة ـ بدون طلب منه ـ منزلة الأتباع والحشم ، يذلون بين يديه ذلة الخادم أمام سيده ، ولا يزال يرن فى أذنى مثل كانوا يتداولونه للاعتذار عن مسلكهم « اللى ياكل عيش السـلطان يضرب بسيفه » .. كم كرهت لهم هـذا المسلك ، وكرهت بسببه أى مال يجلب هذا الاستعلاء من جانب ، والذل من جانب ، بل كدت أكره طبيعة الانسان ، وأكره الحياة .

(« التعاون » ، العدد ٢٧٥ ، ١٩٦٨/٥/٢٦ ، ص ١٠) .

الاصبعان المبتوران ..

من دلائـل الفن البديع والصنعـة البارعـة عند نجيب محفوظ ـ شيخ مشايخ الطرق الروائية عنـدنا ـ أنه جعـل الحوادث والأبطال فى روايته الشهيرة « زقاق المدق » تعكس بدون افصاح منه ما لحق مصر من فساد وما أصاب وجه القاهرة من تشويه أثناء الحرب العالمية الثانيـة حين ساقت انجلترا الينا قطعانا من اللحم البشرى اقتطعته بسكين الجزار من جميع ممتلكاتها ومستعمراتها لتلقم به مدافع هتلر ، فـداء للفرق القليلة المؤلفة

من أبناء شعبها المتـــاز الغالى عليها ، سحن عديدة عجيبة علينا ، ما بين أصفر وأسمر وأسود وأبيض .. (اذا سخن وجهه كان كمجيزة القرد) حطت على بلدنا كالواغش . وهـــذا الواغش يا أخى كان محتاجا أيضـــا الى الترفيـــه عنه ، وكان ينبغى أن لا يسأله أحد عما يفعل ، والحجة أن المحـــارب الذى قد يموت غدا يعفى اليوم من الحساب ، وهكذا نزلت من ستر البيوت الى لعلعة الكباريهات فتيات كثيرات غريرات ضاقت بهن الحياة فى بلدهن المتجاهل لهن فلم يستطعن مقاومة اغراء المـــال السايب ، وتعرضت أرواحهن للتشريد وأبدانهن للامتهان .

ورمز نجيب محفوظ لهذا التشويه العام برجل فى روايتـــه أسماه « زيطة » ليكون الاسم رمزا أيضا للانحلال السائد ــ فصنعة « زيطة » هى احداث تشويه فى أجساد الفقراء الضائعين المسحوقين من أبناء الشعب ، انسدت فى وجوههم سبل العيش فلم يجدوا مخرجا لهم الا بالشحاذة وتكفف الناس ، كسر ذراع ، تقطيع يد ، فقأ عين كلما غلا التشوية غلا أجره . ليس فى الأدب العربى كله شخصية مرعبة مخيفة كشخصية « زيطة » . وسواء كان « زيطة » مستمدا ــ كله أو بعضه ــ من الواقع أو مستمدا من الخيال (كم كنت أتمنى أن أعرف الحقيقة) فان نتائج عمله على كل حال لم تكن غريبة أو دخيلة على مصر .

فالقاهرة كانت فى صباى تعج بأعداد غفيرة من المشوهين

حتى ليقال ان بلد العميان أصبح أيضا بلد المشوهين ، اذ كانت حديثة العهد بغول مفترس غير مألوف لديها ، له أظلاف حادة كالسكين اذا دهمت قتلت ، وأنياب مسعورة للبتر والنهش ، اسمه « الترومای » ـ اذا بقيت مع العامة ولم تشأ التفاهم وقلت الترام .

لم يكن السائق القادم من الريف ـ وربما على صدغيه وشم عصفورة ـ قد ألف بعد كيف يسوقه ، ولم يكن المارة فى الشوارع قد عرفوا بعد كيف يتفادونه تفاديهم للحمير وعربات الكارو ، ولم يكن المنتفعون به قد تدربوا بعد على الطلوع اليه والنزول منه . يكاد الترام يحتك بجدران شارع الخليج المصرى ، والعجيب أن شركة الترام هى التى تكفلت برش هذا الشارع واضاءته دون بقية شوارع القاهرة ، ويكاد السلم اليسار فى الترام الذاهب يحتك بالسلم اليسار فى الترام القادم ، فالمسافة بينهما ضئيلة جدا .

حقا ان الترام لم يكن مسئولا عن هيام كثير من الصبية والكبار بالشعلقة على السلم اليسار ، اما شيطنة أو هربا من دفع التذكرة ـ ولكن كثيرا من خلق الله هوى تحت العجلات بسبب هذه الشعلقة ، وكان مكتوبا على مسند كل مقعد فى الترام « اذا أردت الطلوع أو النزول فاطلب من الكمسارى توقيفه القطر » ،

ومع ذلك فما كان أكثر الصاعدين والهابطين أثناء سير الترام ، فلقى عديد منهم حتفه مدهوسا ، فاذا نجا نجا مشوها .

انني أرجع الى الترام كثرة عدد المشوهين فى القاهرة أيام صباى ، فى مقدمتهم أولئك الذين بترت العجلات منهم الساقين من أسفل البطن فأصبحوا يسيرون اما زحفا على عجيزتهم الحافية واما على ألواح من خشب لها عجلات صغيرة ، والعجيب أننى كنت ألحظ أن هؤلاء الضحايا هم أكثر المشوهين انشراحا ومحبة للفكاهة ، أخذا وعطاء ، كأنما حين دفنوا نصفهم الأسفل فى الأرض دفنوا معه — على الأقل — نصف همومهم .

صديقى صاحب الكلبين عند مطعم اليونيون بجوار دار القضاء العالى ، ولو أنه قد اختفى عنى هذه الأيام فلا أعرف ماذا جرى له ، وجارته هذه الفتاة أم طرحة سوداء ، بائعة اليانصيب ، كحيلة العينين فلها عشاق كثيرون ، يحثهم اليها شذوذ الطبع أو رغبة اكتشاف ألوان عجيبة جديدة من المتعة .

وقبل أن يتوارب — ولا أقول ينغلق — باب التشويه بسبب الترام كان قد انفتح له باب آخر ، باب ضيق جدا ، لاشك أنه اتسع فيما بعد ، وأعنى به باب اصابات العمل حين بدأت

الصناعة ـ ولو بدائية ـ تدخل بلادنا ، أصبحت أتتبع بوجل وجزع أنباء عمال المحالج الذين ماتوا أشنع ميتة حين انكبسوا داخل بالات القطن ، أو حين أسمع من أفواه أسر غير قليلة عن عائلها بأن « العدة أكلت ذراعه » .

دعني الآن أصف لك أول اصابة عمل شاهدتها فى صباى ، لأنها لاتزال الى اليوم مرســومة فى ذهنى بحبر زفر لا يمحى مهما طــال العمر ، بل ان المصاب الذى لم أره الا مرة واحدة للحظة قصيرة منذ أكثر من نصف قرن لو قابلته اليوم وســط الزحام لعرفته وسلمت عليه وقلت له : كيف حال يدك ؟ ..

ولعلك تذكر أننى حدثتك عن الخواجه الذى فتح فى خرابة الوقف أمام بيتنا مصنعا للكازوزة ، وزجاجات الكازوزة تنفجر أحيانا تحت الضغط حين تعبأ بالغاز فكان الرجل الذى أتحدث عنه عاملا فى هــذا المصنع قد انفجرت فى يده زجاجة فأطارت له أصبعين من يده اليمنى ، الابهــام والسبابة . رأيته جالســا القرفصاء أمام سور المصنع ، وحيدا ، تسيل الدماء من يده ، لا شىء فى العالم ينطق بالضياع والمسكنة مثله ، لا يدرى أين يذهب ، والى من يشــكو ، لو ذهب للبوليس لقيد الحــادث « قضاء وقدرا » . فلم يكن فى البلد حينئذ سلطة تهتم باصابات العمل والاعتراف بحق العامل فى نفقات العلاج والتعويض ، فهمت أنه جلس انتظارا لزميل له سارع الى العطار لشراء شىء من

البن ليضعه على جرحه ، لم يكن أساى لجرحه وضياعه هو وحده الذى طبع صورته فى ذهنى ، وانما سماعى لقول زميله له حين عاد بالبن : معلهش ، قدر ولطف ! بكره تشوف لك شغلة تانية وربنا يحنن عليك .. ففهمت أن العامل المصاب رفت من المصنع وحل محله عامل جديد ، فى كل يد له خمسة أصابع .

(« التعاون » ، العدد ٢٧٦ ، ١٩٦٨/٦/٢ ، ص ١٠) .

النفخ فى قربـة مقطوعة

النافخ أمامك فى قربة تراه يعلم أنها مقطوعة قد لا يحظى منك الا بالرثاء لغفلته وحماقته ، ثم تنصرف عنه اذا كنت لا تحب أن تزج أنفك فى مشاكل الناس أو تستسخف ظنك بنفسك أنك قادر على اصلاح الكون ، وتقول : ذنبه على جنبه •

أما النافخ أمامك فى قربة تراه يجهل ولا يعلم أنها مقطوعة فمن العسير عليك مهما بلغ اعتزالك وطلبك للسلامة أن تمر به دون أن تخبط على كتفه وتشير الى شدقيه المكورين وتقول له : استيقظ ، حرام وعذاب بذل كل هذا الجهد الضـائع ،

ثم تثوب لرشدك فى الحالتين حين يشرق فى ذهنك تعليـل مبرر لهذا النفخ : وتراه دليلا على أن صاحبه يعانى من أزمة مستحكمة أو ضيق شـديد ، أو حيرة لا مخرج منها ، فالنفخ هو آخر وسائله وأهونها للتعبير عن نكده ، للتخفيف من أرهاقه وهمومه، فنحن ننفخ فى حالة الحيرة والغضب والتأزم بل لعل النفخ فى قربة نعلم أنها مقطوعة أنجح من العلاج من النفخ فى قربة لا نعلم أنها مقطوعة .

ومنذ أن أخذنا بنظام الرى المستديم بدلا من رى الحيضان بفيضان النيل ونحن نعيش فى مصر هـذا الزمن الطويل وأمامنا مثل فذ للنفخ فى قربة نعلم أنها مقطوعة ، وأعنى به مسلكنا مع خطر البلهارسـيا ، ننفق الأموال الطائلة فى إنشـاء مستشفيات ثابتة ومتنقلة لعلاج الفلاح من هذا الداء ، فاذا انصرف عنهـا وقد تم له الشفاء عاد من يومه وغطس فى الترعة فأصيب به من جديد وسارع من غد الى المستشفى وهـكذا دواليك ، كأن نفخنا فى قربـة نعلم أنها مقطوعة هى كل وسيلتنا للتعبير عن الضيق والحيرة .

ومنذ بدأت أقرأ الصحف (أكثر من نصف قرن) وأنا أقع بين الحين والحين على نبأ يبشر بقرب اكتشاف علاج ناجح لهذا الداء ، ولكن توالى التبشير دون أن تتحقق البشرى جعلنى منـذ زمن أضيق بطول التجارب وتتابعها فكففت عن قراءة هذه الأنبـاء ،

أصبحت غير متوقع الا لمعجزة ، فالمعجزات تهبط فجأة وبلا مقدمات .

وآخر الأنباء هناك تجربة أخرى تجرى الآن فى الفيوم ، لعقار جديد يتلف القواقع ، ولا يتلف الزرع أو صحة الحيوان والانسان . أدعو الله من كل قلبى أن تنجح التجربة هذه المرة خاصة وأن نظام الرى المستديم بعد انشاء السد سيبلغ مناطق كبيرة كانت فى نجوى من البلهارسيا ، ما هذا ؟ الانسان الذى يبلغ القمة يقف عاجزا أمام كائنات ضئيلة عرفت كيف تستمد قوتها الجبارة من تقوقعها .

ولم أكن أدرى الا أخيرا أن فى مجتمعنا قواقع أخرى لا تقل عن قواقع الترع استعصاء على العلاج ، مسلكنا معها هى أيضا هو النفخ فى قربة مقطوعة ، والدليل هو هذه الاحصائيات التى نشرت فى الأسبوع الماضى عن طوائف من المنحرفين ، يدخلون السجن المكتوب على بابه « السجن تأديب وتهذيب واصلاح » فاذا خرجوا منه عادوا اليه بعد أيام قليلة بسبب غين الانحراف الذى ساقهم اليه أول مرة ، الشعار المرفوع على باب السجن تبين أنه فشوش فى فشوش ، احصائيات مذهلة ، مخيفة ، اذ يتبين منها أنها نسبة هؤلاء العائدين فى بعض الطوائف تصل الى ٨٥٪ ، هؤلاء أناس تقوقعوا هم أيضا ، فى قاع المجتمع لا قاع الترع .

أنت لا تتصـــور كم عناء الدولة وكم تنفق من الأموال من جراء هذه العودة المتكررة المزمنة ، دع عنك ضيق الســجون وتأمل كم يترتب على كل عودة من انشــغال رجــال البوليس بالتحقيق ، ثم رجال النيابة ، ثم القضـــاة ، ازدحــام الأرشيف والدفترخانة وأقــلام تحقيق الشخصــية بأكداس من الأوراق والفيشات ، جهد ضخم ضائع ، وعناء شديد بلا جدوى .

ولعل هذه الاحصائيات الأخيرة تعيد اثار السؤال الأزلى ، ولأنه أزلى فنحن نتجاهله فاذا انتبهنا اليه ففى حقبة مفاجئــة يعقبهــا صمت القبور ، ســؤال : ما هو أنجح عــلاج لمقاومة الحشيش ؟ السجون مزدحمة أشد الازدحام بتجاره وضحاياه ، ومع ذلك فلا يمر يوم واحد دون أن أقرأ فى الصحف عن ضبط مقادير هائلة ضخمة من الحشيش .

أفلا يجمل بنا أن نواجه الحقائق وأن نكف عن النفخ فى القربة المقطوعة ؟

(« المصاور » ، العدد ٣٢٠ ، ١٩٦٩/٦/١٥ ، ص ١٠) .

الدست .. والمغرفة ..

الأوتوبيس أو الترام مغرفة ملمومة تطلع من الدست الكبير « الشعب » بنموذج صادق لاختلاط طبقاته فهو تقدم بالمجان لمن يريد أن يقوم بدراسة ميدانية ، بلا حاجة لاستمارات أو وجع دماغ . أتمتع — رغم كل البلاوى — بركوبها لأننى أحس فيها — ولا أقول أرى أو اتبين — بما لا أحسه فى مكان آخر من تفاعل عاملى الثبات والتطور فى جماعتنا ، وكلمة « جماعة » أحب الى من كلمة « مجتمع » لأن فيها رائحة كلمة « الأهل » . ويخيل الى أن النفوس حينئذ تزداد تكشفا وابانة عن الطبائع ، كأن قصر عمر الزمالة يحثها على السفور .

أقارن بين أوتوبيس اليوم وأوتوبيس الأمس . .

ولكن قبل أن نطلع الى الأوتوبيس قف معى قليلا على المحطة . بالأمس كان يدور حولى بحذر وتهيب فلاح لعله قادم للحى أول مرة ، ثم يقترب منى ويسألنى باستعطاف « يا سيدنا لفندى : أوتوبيس الامام يمر من هنا ؟ » فأقول له نعم ، انتظر معى ، اذا جاء دللتك عليه .. يتركنى ويتسحب ويسأل غيرى من الواقفين نفس السؤال . مرة ثانية ، وثالثة .. لم يكن يثق بسيدنا الأفندى ، كان فى احتماله أن كل انسان سيغشه . لله فى لله .

أما الآن فقد اختفى التسحب وتكرار السؤال . أهو من نشأة تبادل الثقة بين طبقات الشعب أم من ازدياد علم الفلاح واعتماده على نفسه ؟ كلا الأمرين خير .

كان بالأمس اذا طلع فلاح فهو عند بقية الركاب مثال بديع للعباطة واللخمة ، وربما أصبح مثار تندر ، يؤخذ بيده ويدفع به ، ويوضع موضعه ويصرخ عليه اذا جاءت محطته لينزل كأنه طفل تائه أوقع الجميع فى ربكة .

اختفت هذه الصورة الآن وانقطع التندر ، اللهم الا اذا كان الفلاح هو نفسه الذى يثيره من باب التفكه وتزجية وقت الرحلة .

وكان اذا طلع عامل ــ وبالأخص اذا كانت على جلابيته آثار مهنته أو كان فى يده عدة الشغل ، قوبل بشىء من الامتعاض، وأحس هو أنه غريب أما الآن فقد حدث تقارب كبير فى الملبس ، وازدادت عناية العامل بنفسه ، وانقطع شعوره الغربة .

وكان عمال البناء الصعايدة بجلاليبهم الفضفاضة المقلمة بالخط العريض « كأنها أكياس المراتب » اذا انفلتوا من العذاب مع الغروب وركبوا المترو لا يجسرأون على اقتحام الدرجة الأولى . الجلاليب اليوم هى هى لم تتغير ، ولكنهم يحتلون المترو ــ درجة أولى أو لا درجة أولى ! ــ احتلال صاحب حق لا منازع فيه ، آثار الشقاء والاجهاد على وجوههم تشل كل اعتراض من بقية الركاب وهم يلحظون فى شىء من الأسى أن فى هؤلاء العمال الشيخ المتهدم والصبى الذى من حقه أن يكون فى فراشه .

وكانت اذا طلعت الى الأوتوبيس امرأة ــ وبخاصة وقت الزحام ــ أثارت احتجاجات كثيرة ، قد تسمعها بأذنيها .. « لماذا لا تبقى النساء فى البيوت » قد تجد من يقوم ليجلسها مكانه . لا توفيرا لراحتها بل صيانة لكرامتها من اللمس والاحتكاك والزقة ، ــ هذه مسألة عرض يا أخى ! ومسألة العرض هذه مسألة مهمة عندنا جدا . وكانت المرأة البلدية الشابة تعرف دائما كيف تشق طريقها وتسكت كل احتجاج

باستعداد واضح للهجوم من لسان ذرب حلو الحديث • أما الآن فقد زال الفرق بين النساء والرجال (اختفى قولهم : كعب عالى ، حاسب عندك) وقلما تجد المرأة العجوز من يقوم لها ، لا من جلافة أو نطاعة ، بل من رغبة مكنونة فى اشهار بلاء الزحـام ، من أجل ذلك ينبغى أن يعم الجميع •

لم تكن الصلة وثيقة بين السائق والكومسارى كل منهما فى حاله ، أما الآن فلا أدرى لمـاذا أصبح كل منهما لا يطيق الخلو لنفسـه ، لابد أن يجرى بين الاثنين كلام ، أى كـلام ، ولو من بعيد لبعيد ، زاد زهق السائق والكومسارى عن ذى قبل •

وفى ذاكرتى كومسارية ترام كانوا يبيعون لى تذاكر قديمة نظير ربح لى قدره مليم واحد « أما القرش فلهم هم » أما الآن فقد اختفى هذا الغش •

عدد الصحف فى الأيدى زاد عن قبل ، لايزال عدد الكتب قليلا جدا • لعل الزحام عامل لا يساعد على صحة الحكم • ولكن هـذا هو الشأن أيضـا فى القطـارات حيث يجد كل راكب مقعدا له •

ولكن لايزال فى الترام والأوتوبيس ـ كما هى ـ ظاهرة حرت فى تعليلها وتفسيرها : هى سرعة الاعصـاب فى الالتهاب ،

وتكبير التوافه ، وشعللة المنازعات الثنائية البسيطة الى جدل كبير عام متعدد الأطراف ، قد ينقلب الى مشادة ، الى سباب ، بل الى تماسك بالأيدى ، وحينئذ يعلق انتباهى بالفيلسوف الحكيم الذى يحاول تهدئة الجميع بالأمثال والمواعظ ، والتوصية بالصبر ، لا بالاخاء وحسن المعاشرة .. وكلها دقيقتان وكل واحد يروح لحاله .. ولا أدرى لماذا يخيل الى دائما أن هذا الحكيم هو أقل الجميع حظا فى النجاح فى الحياة .

(« التعاون » ، العدد ١٦٧ ، ١٩٦٦/٥/١ ، ص ٨) .

الزحمة غول

أركب الأوتوبيس مرتين على الأقل كل يوم ، ومع ذلك لا يفوتني فى كل مشوار ــ وأنا مختنق وأنا وسط الزحمة ــ أن أحمد المولى سبحانه وتعالى فى سرى ومن كل قلبى على كرمه ومنه .. أن لم يكتب على جبينى أن أطلع فى الحياة سائقا أو كومساريا الساعة الثانية بعد الظهر فى شهر أغسطس فى القاهرة ، ثم أواصل حمده كذلك مرة ثانية أننى لم أطلع نشالا ومرة ثالثة أننى لا أسكن حتى شبرا . والظاهر أن حمد الله هذه الأيام ينبغى أن يكون بالتقسيط أيضا .

ليس كمثلهما انسان يستحق اللوم والرثاء معا ، وأعترف أن الرثاء يغلب عندى على اللوم فهما والركاب سواء بسواء من ضحايا غول فظيع اسمه الزحمة ، هو المسئول عن افساد معدتهم وارهاق أعصابهم ولطش أمخاخهم وسقوطهم فى براثن كرب يسمم حياتهم ، هو الذى يفك كل قوى الشر فى نفوسهم من عقالها ، فتنطلق كالسيل الأهوج ، لا يصده حياء أو رفق أو ندم .. هو المسئول عما نراه فى الضعفاء منهم العاجزين عن التحمل والمقاومة من الشراسة والبذاءة والمسارعة لأهون الأسباب الى الشر والاعتداء ، أصبحت أكبر لذة لهم تعذيب اخوانهم من خلق الله ، أضج أحيانا حين أراهم أشد قسوة وجفاء مع الغلابة المنكسرين وبخاصة أهل الريف ، ومن المحتمل أن يكونوا من بلدياتهم أو معارف أمهاتهم وأخواتهم وكان ينبغى — لو صحت نفوسهم — أن يكون بها ولو قطرة من حنان عليهم . اننى لا أتدخل فى مسألة تقدم عدائهم للمرأة على عدائهم للرجل ، فهذه وجهة نظرهم أحرار فيها ، ولكن كمية الشتائم التى تنهال على المرأة عامة فى الأوتوبيس شىء مهول ، وهذه ظاهرة لها دلالتها وتستحق التحليل ، عندى عليها كلام أؤجله لفرصة أخرى .

مطلوب من السائق أن يشق طريقه وسط فوضى المرور ، وكان ينبغى أن يستتب نظامه ، فهو معذور اذا زاد اللخبطة

لخبطة .. أن يتحمل تكدس الركاب عن يمينه الى آخر موضع لشمبطة أصبع قدم على السلم ، من حقه أن تتاح له الرؤيـة والتنفس ، أن لا يقف فى المحطـة ، ولو وقف لحكمت عليـه بالعمى أو بالجنون ، وربما سبه أو ضربه الركاب أنفسهم لأن الأوتوبيس منبعج من شـدة الزحام ، لايمـكن ولو بمخراط المحشى أن ينفذ اليه قادم جديد ولو كان فى حجم الفتلة .. فهو معذور اذا « حرق » المحطة ، أن يقف بعد علامة المحطة ، ولكنه يصـل فيجد قبله أوتوبيس ــ وأحيانا ثلاثة وأربعة ــ واقفة أمامه . الركاب لا ينتظرون وينزلون وهم يحمدون ربهم على الخلاص من النكبة ، وليس عنده ميكروفون يستدعى به الركاب الواقفين عند علامة المحطة ليهرولوا اليه سمانا ونحافا ، بكعب عـالى وشبشب ، لو زحف محل السابقين له واحدا بعد آخر لوقف فى المحطة أربع مرات ، فهو معذور اذا انطلق كالسهم بعد أن أدى واجبه بالوقوف ، ولتنحرق المحطـة وينحرق دين المنتظرين بها . كيف نطلب منه أن يرد بالحسنى على راكب يطلب اليه بعد الطلوع من المحطـة أن يقف لينزل حضرته . الراكب معذور لأنه لم يتمكن من تخليص بدنه من الزحمة قبل تحرك الأوتوبيس ، والسائق معـذور لأنه كفران ، لو استجاب لكل راكب مماثل ــ وما أكثرهم ــ لتضاعف عدد المحطات مرتين أو ثلاثة . السائق يتسلم عربة متلصمة ، الفيتيس يحتـاج لذراع ماشيست ، والدينامو يغلى ، ويخرج منه بخـار كأنه قطـار

سكة حديد ، والفرامل هي وذوقها ، حمولتها ٣٠ راكبا فتحمل مائة أو يزيدون . يشعر السائق أنه لا يجر هذه الأكداس وراء ظهره بل انه يحملها فوق نافوخه .

والكومسارى ولاشك أبأس حالا من السائق ، انه مكوك يشق الزحام بلا انقطاع جيئة وذهابا ، ويقفز من سلم الى سلم ، اذا لفظ الصفارة من فمه فكأنه يلفظ آخر أنفاسه . عنده من التذاكر أشكال وألوان . طوالى ونصف المشوار ، ملكى وجهادى ، درجة أولى ودرجة ثانية ، تذكرة للصبيان ، ما أسهل اثارتها للمشاكل اسم النبى حارسه جالس على الحجر . هل بلغ رشده أم لم يبلغ ، هل يستحق تذكرة أم لا يستحق .. والنبى الكومسارى ابن الحلال اللى قبلك سابه .. اشمعنى أنت ؟ ..

قضايا يجب أن تتم فيها المرافعة من الجانبين . عنده من النقود غير المزيفة أشكال وألوان ، نصف القرش نوعان والصاغ ثلاثة أنواع ، ونصف الفرنك نوعان ، والحتة أم خمسة يسهل ضياعها وسط القروش ، ينبغى أن يكون عقله دفترا .. عليه لراكب درجة أولى ٩٦ قرشا ، ولراكب فى الدرجة الثانية ٤ صاغ ، عليه أن ينبه الست أم محمد أن محطة السلم هى القادمة ، حتى الخوجايه أن المستشفى الفرنساوى هو المحطة التالية جميع ركاب الدرجة الثانية يركبون من سلم الدرجة الأولى ، ظنا

منهم أن السائق سيراهم فلا يدهسهم ، ثم يقفون حيث هم ، فاذا طلب اليهم الكومسارى تشريف الدرجة الثانية غضبوا واحتجوا وقامت خناقة .. ينبغى أن يكون بصاصا ليعرف من السحنة وحدها من دفع ومن لم يدفع ووقف وقفة بريئة ، تقول عنه فى أحسن الفروض انه سرحان أو انه من الغلب مبلم .

وعند محطة الوصول ــ ولو كانت فخمة مثل محطة المترو بجوار التليفزيون ــ لا يجد هؤلاء العمال مرحاضا ، ولا مكانا يغسلون فيه أيديهم ووجوههم . هل بعد هذا امتهان للكرامة ؟

أنت تضج وتضجر وتنفجر وتسخط من مشوار لا يستغرق ثلث ساعة ، فما بالك بهم وهم يعملون ٨ ساعات ؟

من وسائل التخفيف عن أعصابهم المرهقة هذه المسامرة التى لا تنقطع بين السائق والكومسارى ، وبخاصة فى موسم كرة القدم . وقد يكون من وسائل بعضهم أيضا ادمان للحشيش .. وهنا تكون الطامة الكبرى اذ تصبح الشراسة داء مزمنا ، بل يتضاعف درجة بعد درجة .

ليس افساد الزحمة للخلق والاعصاب قاصرا على عمال النقل . أنت تلحظه ولو على درجات متفاوتة لدى كل موظف يزدحم الناس حوله ، كعمال مكاتب البريد ، بل رأيت بائعا فى

مخبز واتته الشهرة فازدحمت الناس على أبوابه وهو يلعن الدنيا ويسب الزمن من شـدة ارهاقه فى خدمة الزباين •

قد استمعت باذن صماء لكل المقترحات التى تحـاول علاج المشكلة دون أن ترجع الى أصلها ، انها كلها تسكب المـاء فى قربة مقطوعة • وقد منعت ابتسامتى أن تتحول الى قهقهة حين سمعت اقتراحا باجبار العمال على حضـور محاضرات ثقافيـة بقصد التوعية فهذا كلام خيالى ومحض أوهام ، ولعله هو الذى دفعنى لكتابة هذا المقال •

أعطنى أوتوبيسا غير مزدحم وأنا كفيل بأن أعطيك سائقين وكومسارية مهذبين لا يسارعون بالشتيمة أحيانا وبالضرب حينا •

(« المسـاء » ، ١٩٦٣/١٠/١٤ ، ص ٨) •

دعـاء وعـزاء ..

لا أستطيع أن أكتب لك هـذه المرة عن شيء سـواها ، لاتزال الصـدمة تذهلني والحزن يقبض على قلبي وأعصـابي مشـدودة اليها ـ امابـة ـ أغلب الضحايا ينتسبون اليهـا أما بالسكنى أو بالتعلم بعد الظهر في مدارسها ، وكلا النسبين ينطق بالزحام الخانق ، كانت ضحايا « دندرة » ومزلقان غمرة في ليلة رأس السنة (وأدعو الله من كل قلبي ان تكون « العجوزة » آخر هذا السجل الأسود) كانوا من طبقات وأحياء متباينة .. توزع الحداد ، أما هـذه المرة فالمـأتم مأتم حي واحد ، يقوم على التجانس ، لا مأتم لفقيد فرد ، بل لأكثر من سبعين فقيدا ،

ماتوا جميعا معا ، فى أحضان بعضهم البعض ، فى لحظــة واحدة ، اختار القدر امبابة ، ودب اليها الموت فى تروللى رقم ٤٤ •

ـــ يا له من رقم ينبىء بالقبح وبالشر ، والعجيب أن القدر أنذرنا فلم يلتفت أحد لانذاره ، ففى نفس الموقع ، وفى نفس اللحظة ، من اليوم السابق ، كاد يقع ترولللى آخر فى النيل لولا أن صدمته شجرة ، كانت فيها النجاة •• ليت الذى زرعها كان قد زرع شجرة أخرى فى هذا الموقع المشئوم •

فرع للنيل ضيق ، على ضفة منه حى الزمالك ، وعلى الضفة المقابلة حى امبابة ، بين الاثنين كوبرى ضيق ، وهــذا يرى ذلك بوضوح بالعين المجردة ، ولكن كلا منهما عالم منفصــل ، مستقل بذاته ، لا صــلة بين الاثنين ، الزمالك حى العمــارات والسرايات والسيارات والفيلات والحدائق ، الفكهانية اللوكس، والجزارين العظام ، متاجر الزهور الغالية •• والطيور النادرة ، وحى امبابة مساكن شعبية كأنها أحجار الدومينو •• وبضــاعة على عربات يد أو على الأرصفة •

لقد عاصرت نشأة حى امبابة بل قل انى شــهدت مولده ، فقد رأيت نموذجا من الخشب لأول مساكن شعبية بنيت فيه ، ورأيت مسير أول ترولللى من كوبرى الزمالك اليه • وكان آخر العمار كباريه ليلى له اسم ظل زمنا طويلا له شــنة ورنة ، ان اختفى الكباريه فلقد بقى الاسم مرتبطا بامبابة كأنه وشم عليها

لا يمحى .. وكان الترتيب والظن أن تجد طبقة العمال فى امبابة مساكنها الرخيصة المريحة ، ولكن شيئا فشيئا زحفت اليها جموع غفيرة من الطبقة الوسطى فأصبحت القاهرة كالبعير الذى يكاد يقصم ظهره ثقل خرجين كبيرين ، شبرا فى شرق النيل ، وامبابة فى غربه ، ولم يصحب نمو السكان فيهما نمو مماثل فى عدد وسائل المواصلات . فكان الاختناق داخل الأوتوبيسات مظهرا جوالا للاختناق داخل الحى المزدحم .. وها هى امبابة تدفع أخيرا ضريبة الازدحام .

١ - اننى افتخر بنخوة أبناء الشعب الذين سارعوا وقت النكبة الى مد يدهم بالمساعدة . فكسروا النوافذ وأمكنهم انقاذ عدد غير قليل من الركاب .. وكذلك لم يمنع الرعب أو الذهول بعض من كتب له النجاة من الالتفات الى انقاذ غيره من الضحايا ، فليس الا فى وقت الشدة ولحظة الخطر السحيق بالنفس لا بالغير يعرف الشجاع من الجبان ، لقد ذكرت الصحف بعض أسماء أصحاب هذا الفضل ، هذه المروءة وهذه الشجاعة ، وكنت أتمنى وأنا أقرأ صرف تعويضات لأسر المنكوبين أن أقرأ أيضا خبرا عن تكريم من أشرت اليهم ، حبذا لو أمر السيد رئيس الوزراء بمنحهم نوط الجدارة .

ومع هذا الافتخار .. فقد دهشت حين اندفع الجمهور يصفق بحرارة لحظة انتشال الترولل معبرا عن اعجابه بنجاح

هذا العمل الميكانيكى العسير ، فان جلال الموت وهول الحزن على الضحايا كان ينبغى أن يطول معهما الصمت فلا يقطعه تصفيق •

٢ ـ سنشهد نشاطا فريدا من مصلحة الطرق لاصلاح جسر النيل ، كنت أود أن لا يكون شرط العمل أن تقع نكبة تهز الرأى العام • أما مرفق النقل فكان الله فى عونه ، ان كل نشاط سيبذله لن يكون الا بمثابة التصبيرة التى لا تغنى ولا تسمن من جوع •

٣ ـ ما الذى يدفع بانسان الى التشعلق بأوتوبيس مزدحم مائل ، معرضا نفسه للموت ؟ أهو من الاستهانة بالموت فنقول انها من خصائص هذا الشعب ومن بواقى النظرة القدرية ، أم هو لأن الانسان الحديث أصبح أسيرا لنظام رتيب انعقدت عليه حياته فلا يستطيع الفكاك منه ، ولو عرض نفسه للموت •

٤ ـ مثل هذه الحوادث لا تخلو من مفارقات تنم عن عجائب طبع الانسان • فلقد بلغك ولا ريب خبر هذه السيدة التى نجت ورأت التروللى يغطس ومعه حقيبة يدها ، فلم ينسها فرحها بالسلامة ولا حزنها على المنكوبين من أن تصرخ من شدة الجزع على حقيبتها •• فيها مصروف البيت لآخر الشهر ؟ !

قدمت العزاء مرارا لأفراد ، أما هذه المرة فانى أقدمه لحى بأكمله ، حى امبابة ، حيث يسكن بعض من أعز أصدقائى •

(« التعاون » ، العدد ١٤ ، ١٩٦٥/١١/٧ ، ص ٨) .

الحلقــة المفقودة ..

أذكر على وجه اليقين ـ عن أيام زمان ـ أنني رأيت هذه الحلقة أكثر من مرة ، لم تكن مستديرة ، بل اهليلية على شكل (البونية) التي كان يلبسها العصبجية أيــام عزهم ، حتى اذا هووا بها على رأس بطحوها أو على فك خرشموه ، من حديد هي كابية اللون ، أما حلقتي فمن نحــاس لامع ، مهيبة وسخية معا ـ صفتان قلما تجتمعان ـ تكاد تصرخ بأنها من منتجــات بلد صناعي له مستعمرات شاسعة ، شــديدة الفقر ، شــديدة الثراء بمناجم لكل المعادن ـ والغرف منها نهبة ، ومن صــنع

شركة مديرها له كرش شاسع أيضا ، عليه سلسلة من ذهب غليظة (اللون الأصفر هو قدره) •

تتدلى هذه الحلقة من سقف عربة القطار لصق الجدار الى أن تبلغ لافتة صغيرة ، من نحـاس لامع ــ هى أيضا ــ تقول « اشارة الخطر ، لا تعبث بها » لا تشدها للعب ، أو شغفا ببطولة زائفة بسبب قصر الذيل أو شـدة الملل ، بل انتظر حتى اذا شب حريق أو نشبت عركة أو خرج القطار عن الخط ، سترى أنك اذا شـددتها وقف القطـار على الفور ، هـذا هـو ما تؤكده لك •

كانت من المقومات الأساسية لجلال قطار السكة الحديدية ، كان له فى صبانا جـلال وأى جلال ، ربما كنا فى مصر أشـد الناس انبهارا بهذا الاجلال ، لا للسذاجة ، بل لأن القاطرة تشبه بعض التماثيل الفرعونية ، تمثال سيد قشطة مثلا ، لا أعرف فى أى متحف هو ، ولكن صورته منطبعة فى ذهنى ، أتصـوره دائما يريد أن يأخذنى بالحضن والعياذ بالله • ومع ذلك فرغم أننى رأيت هـذه الحلقة فى أكثر من سفر لا أذكر أنها تعرضت لامتحان ولو مرة واحدة ، حتى تدهور بها الحـال فى نظرى وأصبحت آخذها مأخذ الزينة ، أو مأخذ المعرة لا يكتسب الصدق شرفه الا بتجربته ، مع الأسف •

هل رأيت هذه الحلقة فى مصر ؟ لا أذكر ، لاشك أننى رأيتها فى أوربا وأنا شاب لم يطر شاربه ، على كل حـال فان قطاراتنا الآن كلها ـ حتى اللوكس ـ خلو منها •

جالت هـذه الذكريات فى ذهنى وأنا أقرأ بألم شـديد حوادث خروج القطار عن الخط ، وأكله رصيف محطـة ، فوق البيعة ، بسرعة ٩٠ كيلو متر ، والسائق ولا عنده خبر ، ربما يغنى لنفسه « سالمة يا سلامة » •

وأخيرا بعد عشرة كيلو مترات على الأقل فرمل ولكن بعد خراب مالطة ، قلت لنفسى : هل من سبيل لاحياء هـذه الحلقة عندنا ؟ وهل لو فعلنا كان العابثون بها أشد نكبة علينا من نكبات الخروج عن الخط •

هذا سؤال أريد أن أتوجه به الى المسئول عن السـكة الحديدية (ألقاب الوظائف الكبرى أصبحت تلخبطنى) وهناك سؤال آخر أشد تواضعا ، هل نستطيع أن نركب جهاز تليفون داخلى فى القطار ، فى بعض البلاد تستطيع وأنت فى القطـار المـارق كالبرق أن تتلفن لصديق أينما كان مكانه ، فهل من المستحيل أن يتلفن راكب للسائق ؟ هل نستطيع أن نستعير من فنـدق شبرد أو سـميراميس (تابلوه الحجرات) ونركبه فى القطار ، اذا وشوش جرس أو لمع ضـوء على التابلوه أمـام

السائق علم ، لا أن زبونا يطلب قهوة أو شايا ، بل ان هناك خطرا فى العربة التى ضغطت على الزر ؟

هل من المعقول يا عالم أننا فى الوقت الذى نسمع فيه عن الانتاج الآلى (مصنع بلا عمال) وعن الوصـــول للقمر نعجز أن نجد فى رحاب العلم الحديث وسيلة لربط العربات بالسائق ؟

ما رأيك يا من فى عنقه مسئولية سلامة الركاب ؟ ..

(« التعاون » ، العدد ٣٩٦ ، ١٩٧٠/٩/٢٠ ، ص ١٠) .

انانيـــة ..

بعد أن كان كلام القرية عن الفتيلة الصفيح أم سرسـوب من الدخان أسود كالكحل ، عن اللمبة نمرة ٦ التى يحتـاج شريطها لقص شعره بين الحين والحين كبني آدم ، عن الكلوب الذى يحشو أزيزه الآذان وتعشى له الأبصـار ويجذب غارة من الحشرات الطائرة من طراز هليكوبتر وفانتوم ، سيكون كلام القريـة عن السـلك المكسى والعريان ، عن البريزة والكوبس والمـاس والفولت والكيلوات (كلمات أجنبية جديدة ستجرى على ألسنة الفلاحين من وراء ظهر مجمع اللغة العربية) .

دخول للنور وإعادة لبناء القرية ، سيكون للريف وجـه جديد ، وجه مبتسم ، أعرف أناسا من أبناء العاصمة يدخلون الاتحاد الاشتراكى حشرا تحت بند المثقفين ، لا يهمهم من هـذا كله الا شيء واحد ، يحدثنى عنه بالأخص من سافر منهم لأوربا ، كم من مرة ، سمعت من أكثر من واحد منهم قوله :

ـ بشرة خير ، أمنيتنا توشك أن تتحقق ، اننا يا أخى فى كل يوم من الأيـام السـتة نعود لبيوتنا من مكاتبنـا مدغدغين ، مبططين ، منهوكين ، من شـد زحـام المواصـلات ، وضجيج الشوارع ، الكلاكسون يخرق طبلة الأذن ، والعادم من ماسورة السـيارات ـ وبالأخص الأوتوبيسـات ـ يخنق الأنفـاس ، والراديو له تجعير عمال على بطال حتى فى التاكسى ، نحس أن أرواحنا وأجسادنا كلها ـ لا دماغنا وحده ـ قد توالت عليها ضربات مطرقة ضخمة ، وجرى فوقها مبرد لحوح ، صدقنى ، ان كتف الجاكتة هو أول شيء يبلى فيها من كثرة الاصطدام بأكتاف أخرى كرش الملح ، ونعيش حياتنا تحت أسقف وبين جدران من الأسمنت ، بلاء ليس بعده بلاء ، اذن لك أن تتصور مقدار جوعنا وعطشنا اذا جاء يوم العطلة لأن نخرج الى الخلاء ، مع نسائنا وأولادنا ، نمشى وسط الحقول ، ونشم رائحـة أمنا الأرض والنبات ، ولكن لا تتم المتعة الا اذا استرحنا وقضينا سحابة النهار فى كازينو ـ نصف قهوة ونصف مطعم ـ بجوار قناة ، نشرب فيه كوبا من اللبن الحليب غير المغشوش بالمـاء

الموت أو المرض أو تربص عدو ، بل من المدنية ، فى لحظة واحدة انقلبت النعم التى تملأ بها حياتى الى نقم ، شعرت أن حريتى مقيدة لمدة شروط .. اننى أسير أجهزة لا أستطيع التحكم فيها ولا أضمن انتظامها ، بل اننى فى أغلب الأمر أجهلها ، كأننى أتلقى عقابا شديدا على هجرى لحياة البداوة : أعيش فى خيمة بلا سلالم ، أشرب من بئر ليس عليه حارس ، استضيء بفتيل من صوف نعجتى مغروز فى شحم ناقتى ، والنار أشعلها بقدح حجرين من الصوان ، كل شيء أحتاجه أستطيع أن أناله وقتما أشاء دون اعتماد الا على نفسى .. ولكننى اخترت المدنية .. فأنا لحبى للهواء الطلق ـ أسكن على سطح عمارة حديثة عالية ، إن لم تنطح السحاب فانها تمسك ذيله . المصعد يحملنى بدل قدمى ٢٠٠ درجة فى أقل من دقيقة ، وعندى ثلاجة وتليفزيون وراديو وتليفون ومكنسة كهربائية ، فأنت ترى أن المدنية لها خيرات كثيرة تطوق بها جيدى .. من طول الفى لها أخذتها مأخذ القضية المسلم بها .. كأنها حق أبدى لى ، أعاشرها دون أن أتنبه لها أو أشكرها .

عدت الى العمارة عشية يوم كبقية الأيام .. ليس فى رفرفة أجنحة الهواء أخفى اشارة بنذير ، كنت معتزما السهر أمام مكتبى وتحت مصباحى ، ولكننى لم أكد أدخل العمارة حتى انطفأ النور ، تعطل المصعد .. والغريب أن انطفاءه هذه المرة

أو النشا ، نشتهى أن نشرب أيضا كوبا من اللبن الرايب الذى اختفت باعته فى العاصـــمة ، ونأكل عجة من بيض طازج ، غير ممشش ، ونحلى بعسل نحل مقطوف لتوه من الخلية .

أشياء بسيطة رخيصة ، ولكنها فى فمنا حلوة ولا تقدر بثمن ، تغنينا عن طبيخ البيوت ، ولو كان من لحم ودجاج ، قد نعود متعبين ولكنه تعب لذيذ ، يستدعى نوما لذيذا ، كم من مرة خرجنا نبحث فى سلقط ملقط عن مثل هــذا الكازينو فعدنا بخفى حنين .

بعد الكهرباء وبنــاء القرية وشــيوع العمران فى الريف نتوقع بوثوق أننا سنجد أكثر من كازينو من هــذا القبيــل متناثرة على جانبى الطريق الزراعى .

لا تقل عن هؤلاء المثقفين انهم أنانيون ، أرنى انسانا واحدا يسلم من الأنانية فى جانب من جوانب حياته ! .

(« التعاون » ، العدد ٥٠٤ ، ١٩٧١/١٠/٣ ، ص ٦)

فى الظـلام

أحسست فجأة بالخوف يلحسنى فى الظلام بلسانه . لا من نطق بوضوح بأنه لأمد طويل .. ماذا أفعل ؟ لابد أن تحمل قدماى بقية جسدى لطلوع ٢٠٠ درجة تخبطت نصف ساعة فى بير السلم كالأعمى ، لهثت ، دخلت الشقة وقلبى يكاد ينفجر ، الظلام مخيم ، كل خيرات المدنية ماتت . الثلاجة التى تحفظ لى طعامى أصبحت مقبرة مختنقة تفسد لى طعامى ، الراديو أخرس، التليفزيون أصيب بانفصال الشبكية .

والأدهى من ذلك أن صنبور المـاء جف .. اذا فتحتـه

وحوح من شـــدة الجذب .. فقد تعطلت المضخة الكهربائيـــة التى تملأ حوض السطح بالمـــاء .. من المحتمل أن أموت عطشا وسط النعيم ، أتدرى أى شىء أصبح عندى أضخم الأشـــياء قيمة ؟ الشمعة ! لا أطمع فى شمعة بكر بطرحة عرس بل فى عقب شمعة .. فأنا خرمان لبصيص من النور .. والشمعة فى كراكيب البيت .. فأين أجدها ؟ ولأننى لحسن الحظ من غلاة المدخنين فقد أسعفنى عود كبريت .. حين طق شرره كان نوره أبرك عندى وأقوى من نور كشاف بطارية مضـــادة للطائرات وقت الغارة .

فتحت جميع أدراج المطبخ .. عثرت باللمس على شـــلة دوبارة .. كماشة .. لفة سلك .. بدرة مسامير .. لم أعثر على عقب الشمعة .. فرغت علبة الكبريت .. سأحرم أيضا من التدخين .. أدفع نصف عمرى ثمنا لحجرين من الصوان .

وجلست فى الظلام على مقعد واضعا يدى على خدى .. أحسست بالخوف يلحسنى بلسانه .. أدركت أننى مسجون فى شقة فى العلالى كأنها منفصـــلة عن الأرض .. بالون طائـــر فى السماء فى ليل كالكحل .. هو قبرى ونعيم المدنية من حـــولى هو كفنى وحنوطى .. والنجـــاة ليست فى يدى .. بل فى يد انسان غيرى لا أعرف من هو .. وأفزعنى تصورى أنه قابع فى كشك خشبى عليه رسم جمجمة وان بقيت لها نظرة شاخصـــة

فى حفرتى محجريهـا وابتسامة سـخرية على نظـام فكيهـا الأهتمين .

من باب الزهق ـ لا من باب النصاحـة ـ لجـأت الى التليفون .. هو وحده الذى بقىَ لى من نعيم المدنية .. قرأت الفاتحة على روح جراهام بيل .. قلت لعلى أستطيع الاتصـال بهذا الانسان المجهول المختبىء وراء الجمجمة .. فى الظـلام وبالتحسيس أدرت القرص .. أطلب رقم الاستعلامات .. قال صوتى فى الظلام لصوت رجل لا أعرف من هو ولا أين هو : من فضـلك .. اعطنى رقم ادارة الكهربـاء بمصر الجديـدة لأن النور مقطوع منذ ثلاث ساعات .. رد صوت الرجل على صوتى فى الظلام قائلا : خليك معايا .. لم أعرف كيف أبقى معه وهو بعيد عنى الا بأن احتفظ بالسماعة على أذنى .. وأكاد أدخل فمى فى فمها .. ولكن الذى طلب البقاء معه هو الذى فك منى .

وضعت السـماعة وصبرت وطلبته من جديد .. لا أطيل عليك .. أحالنى رقم على رقم .. ثم هـذا على رقم آخر .. أصوات يختلف معدنها ونبرتها .. لا أعرف من هم ولا أين هم أصحابها .. كنت أتحدث الى أشباح تظهر فى الشقة وتختفى .. تناوشنى لحظـة ثم تمضى .. وأخيرا عثر صوتى فى الظلام على صوت الباشمهندس .. لا أدرى من هو صاحبه ولا أين هو .

كررت عليه نفس العبـارة التى قلتها لرقم الاستعلامات ولكن بنغمـة زاد فيها الاستعطاف الى درجة التسول .. قـال لى الصـوت :

ـ الأسلاك تشابكت فوق فروع الأشجار وانقطعت .

ـ ومتى يعود النور ؟

ـ لا أعرف .

ـ أليس عندكم عمال ؟

ـ وهل هناك عمال الآن ؟

ـ ألا يمكنكم اصلاح الأسلاك ؟

ـ الدنيا ليل ، والصباح رباح

ـ أيرضيك يا أخى أن أشعر بأننى أعيش فى سنة ١٩٦٨ قبل الميلاد .. لا بعد الميلاد .. فى قلب أدغال متوحشـة فى قارة سوداء لا فى قلب القاهرة صرة الدنيا ؟

ـ لا يكلف الله نفسا الا وسعها .

قفل السكة .. غاظنى أنه ظن أننى أريد فحسب أن أشكو اليه حالى .. لم يفهم أننى كنت آمل أن يكون أيضا أنيسى فقد كان عندى بقية من كلام ، كنت أريد أن أسامره فأقول له :

ــ أليس عندكم ورديــة لطوارىء الليــل ؟ اذا لم تكن معداتكم كافية فلماذا لا تطلبون سلفة من المحطة الأم ؟

لا أكذب عليك . ثق أن الليلة كلها مضت دون أن يعود النور .. وخرجت من الشقة فى الساعة التاسـعة والصـباح ما صار بعد رباحا .. النور لايزال مقطوعا .. وذهبت للحلاق الذى أنا زبونه لأغسل عنده وجهى وأتمضمض .

كم أتمنى ــ وهذا عشم ابليس فى الجنة ــ أن يكتب لهذه الكلمــة أن يقع عليها نظر المســئول عن جهــاز الكهرباء .. لا أدرى من هو ؟ ولا أين هو ؟ .. لعله يطلب تقريرا من هذا الحادث ليعلم أسـباب الخلل ويتدبر كيف يكون العــلاج . فلا أظنه يرضى أن ينقطع النور ١٢ ساعة .. اذا كان هذا حالنا وقت وقف نار الحرب فكيف يكون الحال اذا عادت واندلعت وتولت هى عن فروع الأشجار قطع الأسلاك .

(« التعاون » ، العدد ٢٦٧ ، ١٩٦٨/٣/٣١ ، ص ١٠ ، ٩) .

فى الادخـــار

فى هذه الأيام التى نتحدث فيها عن الادخـــار سرح ذهنى هذه الليلة وعاد الى الفترة التى قضيتها فى باريس بعد الحرب العالمية الثانية •

كنت اذا سرت فى شـــارع الشانزلزية الشهير ـــ عقبـــال عندك ـــ أعرج أحيانا على ممر مسدود لأمسح حذائى •

دخلت ذات يوم الى الممر فلم أجد صاحبى ، وجدت على الجـــدار الذى يجلس اليه ورقة معلقة كتب عليهـــا بخط يده « مساح الأحذية يعلن زبائنه الكرام أنه قام بالأجازة السنوية وسيعود فى سبتمبر » •

أؤكد لك أننى ذهلت ، ثم ابتسمت ، وقلت فى سرى : سبحان الله ! حتى مساح الأحذية يصر على أن يتمتع بأجازته الصيفية فيترك هذا الممر المسدود ليستريح شهرا فوق جبل ، أو على شاطىء ، أو فى أحضان الريف •

ولكن لا تعجب ، هذا الرجل ليس بدعة فى الشعب الفرنسى ، فكل فرد فيه — أيا كان مركزه أو عمله ، لا يعيش الا لتحقيق هدفين ، صغير وكبير •

الهدف الصغير : أن يقضى أجازة صيفية خارج منزله وبلده •

الهدف الكبير : أن يتقاعد عن العمل قبل أن يبلغ سن الستين ، ليتبقى له من العمر بقية صالحة للتمتع بالحياة ، فى نجاة من أمراض الشيخوخة ، فيجد نفسه مع ايراد ثابت كاف قد ملك بيتا صغيرا ولو من حجرتين ، فى الريف وتكون له حديقة صغيرة ولو مترين فى مترين — ليربى فيها دجاجه ويزرع الخس لسلطته •

هذا هو الهدف الذى يسعى لتحقيقة كل فرنسى ، لا يحيده عنه اغراء مهما قوى ، فهو من أجل ذلك يدخر كل فرنك ، بل كل سنتيم ، يستطيع أن يوفره من أجره •

ولا يضع هذه الخميرة فى بيته ، بل فى بنك من البنوك •

هذه عادة لا يتخلى عنها ، مهما أصابه من لدغ من حكومته ، مرة بعد أخرى ، فقد تتبعت بعجب هؤلاء المدخرين الفرنسيين منذ أن صدمهم « بوانكاريه » قبل الحرب بتخفيض سعر الفرنك لأول مرة ، ثم توالى التخفيض حتى ارتفع سعر الاسترليني من ٢٥ الى أكثر من ألف فرنك ، ومع ذلك لم يقلع هؤلاء الفرنسيون عن وضع أموالهم فى البنوك .

والنزعة الى الادخار هى التى تفسر هذه الظاهرة العجيبة التى يكاد ينفرد بها الشعب الفرنسى ، وهى أن الحكومة أصبحت أكبر وارث لتركات الأفراد ، لأن الفرنسى الهائم بالادخار يكره أشد الكره أن يهب فى حياته ولو مليما واحدا لوريث له حتى لو كان ابنه الوحيد .

وينبغى الاعتراف بالدور الكبير الذى تقوم به المرأة الفرنسية لمعاونة زوجها على الادخار ، فهى أولا ست بيت بالمعنى ، بحق وحقيق ، وهى — ثانيا — حريصة على متاعها فى منزلها حرصها على حباب عينيها ، اذا اشترت شيئا فليبقى طول العمر ، لا ليتلف ويستهلك بعد قليل فهى لا تنفك تعنى بمتاعها وتراقبه فاذا ظهر فيه خلل ولو طفيف سارعت الى اصلاحه حتى لا يتسع الخرق على الراقع كما تقول العرب .

ذهبت الى باريس وأنا مصدق للاشاعات القائلة بأن الشعب الفرنسى بخيل ، وأن حصالة الفلاحة الفرنسية هو

جوربها ، وتبين لى كذب هذه الاشاعة ، حقيقة الأمر ان الشعب الفرنسي شعب ليس بخيلا ، بل يعرف كيف يدخر ، البخل معناه مال وحرمان من الثقة ، أما الشعب الفرنسى فيدخر من أجـل التمتع بالحياة ، لا من أجل التمتع برؤية الجنيه فوق الجنيه .

(« التعاون » ، العدد ١١٩ ، ١٩٦٥/٥/٣٠ ، ص ٨)

***

حدثتك فى المقال السابق عما شهدته فى الشعب الفرنسى من حرص على الادخـار ، عن حكمة لا عن بخل ، وانتقل اليوم الى شعب آخر ، هو الشعب التركى ، الذى أقمت بين ظهرانيه ست سنوات (وأعترف أننى لا أعلم من أين جاءت صيغة كلمـة « ظهرانيه » هذه ، هكذا حفظتها ، كالببغاء فى ثالثة ابتدائى) وتركيا تعيش على الزراعة ، فهى بلد رزقـه يا دوبك على قد حاله ، ومستوى الأجور منخفض ، كان مرتبى القليل بالجنيه الاسترلينى وأنا سكرتير صغير فى قنصليتنا باستانبول لا يقل فى قيمته عن المرتب الكبير الذى يقبضه مدير عموم الجمـارك حضراتلرى ، فالجنيه الاسترلينى كان يساوى عشرة جنيهـات تركية — من أجل ذلك كان كل تركى يقول عن كل مصرى انه مليونير ، والشعب التركى معروف بالحرص على كرامته ، والمظهر عنده هو المخبر ، انه من الصنف الذى يفضـل أن يمشي جائعا وفوقه ثياب نظيفة شادة حيلها ولو بجهد غير قليل .. فرشـة

الهدوم تعتبر عندهم من المستلزمات الأساسية فى البيت ، فانطبق على اخواننا الأتراك المثل القائل « فقر وعنطزة » •

ومع ذلك فقد لحظت لدى الطبقة الوسـطى هما مؤرقا ، هو التشوق لأن يكون للأسرة بيت ملك ، مبنى على هيئة فيلا ، بالأسـمنت ، تنتقل اليه من بيتها الخشبى ، أحياء برمتهـا فى استانبول بيوتها من خشب ، كنت أخشى وأنا أسير فيهـا أن أشعل سيجارتى ، تقادم بها العمر ، وأصيبت بارتخاء فى المفاصل، أنا واثق أنها كانت وهى صبية من أجمل البيوت •• وهـذا الهم مفضوح لدى النساء قبل الرجال ، لأن المرأة هى ست البيت ، وهو عرشها ، جميع البنوك فى تركيا بلا استثناء ـ تجرى على سنة واحدة لم أجدها فى بلد آخر ، انها من أجل أن تحث على الادخار وعلى ايداع الأموال بخزائنها تقترع بين زبائنها فى نهاية كل عام وتمنح لمن وقعت عليه القرعة بيتا يكون ملكا له ، كنت أجد صـورة لهذا البيت فى جميع الصحف ، فأتمنى أن يكون لى أيضا مثل هـذا البيت ، هو فى الصورة يملأ العين ، يتوسط حديقة يمرح فيها الحصـان • فلما أتيح لى أن أزور بيتا فازت به أسرة أعرفها ، وجدته عبارة عن أربع قطع دومينو بعضـها فوق بعض ، ومنـديل الست ـ لا أهدابهـا ـ اذا فرش على الحديقة غطاها ، ومع ذلك كانت سعيدة ، تكاد تطير من الفرح •

من أجل هذا البيت ، من أجل هذا الحلم الجميل ، تستيقظ

الأسرة التركية الى ضرورة الادخـار ، انها لا تفكر فى شراء أطيان ، أو أسهم وسندات ، أو حتى فتح حساب فى بنك يدفع ٥٪ ، ولكن بدون لوترية فيلا •

انى لا أزال أذكر هـذه السيدة التركية أم العيال التى حضرتها وهى تقبض من خادمتها بقية مصروف اللحم والخضار ، انها قروش قليلة ، واذا بى أراها تخرج من بين نهديها كيسـا وتفتحه وتضع فيه هـذه القروش بحركة تنبىء بأنها حكمت عليها بالسجن المؤبد ، ثم أعادته وهى تتنهد الى مكانه المرموق ، ولمـا رأت نظرة العجب التى لم أستطع كتمانها قالت لى :

ــ نبى عينى أن أشترى بيتا ، لذلك أضع فى هـذا الكيس كل قرش أستطيع أن أوفره •

والتشـوق لتملك بيت كان أيضـا من سـمات الطبقـة الوسطى ، عند ناس فى أخلاقيات هـذه الطبقة أن يعير أولاد المسالك أولاد غير المسالك بأنهم أجرية سككية ، كان السـكن فى بيت أجرة يعد عيبا يخدش الكرامـة ، بل كانت المشـاركة لا الاستقلال فى ملكية بيت تستحق أن تغور فى مائة داهيـة « طاحونة ملك ولا بيت شرك » ، وكان يقال : « المسمار الذى تضعه فى جدار بيت تملكه يبقى لك » هـذا هو تفسير المثل الشهير (مسمار جحا) •

وكانت الطبقة الدنيا مضروبة هى أيضا بهذا العشـق ، أننى حضرت نشأة « خرطة سيدى أبى السعود » منازلها الأكوام المتواضعة من دور واحد معدة لأرباب المهن الصغيرة ، ولم يكن الأغنياء فى بلدنا يبنون للفقراء ، فكان الفقراء هم الذين يبنون للفقراء ، يعنى لأنفسهم •

وهبت هبة اختفت هـذه المنازل وتشتت الأسر ، وقامت العمارات ، الشقة كالحق ، ونزول العفش على السلم مشـكلة المشاكل ، زال معنى الموطن والجيرة والانتساب الى حى ، حتى مالك العمـارة ذاته لا يفترق مقامه فى نظر الناس عن مقـام مستأجر عنده ، لا تعيرنى ولا أعايرك •

واذ كان الشعب يكره كما رأيت الملك الشرك ، لم تنشأ فكرة بيع الشقق بالرغم من أن الشريعة الاسلامية تعرف ملك العلو وملك السفل ، لذلك خبا فى قلب الشعب تشـوقه الى تملك بيت ، ولكنه لم يخمد فهذا من جذور طبعه وغرائزه •

اننى أعتقد بأن خير وسيلة للحث على الادخار هو العودة الى الهاب هـذا التشوق وكشف الرماد المنهال فوقه ، وفكرة بيع الشقق أصبحت مستساغة فى النظـام الاشتراكى ، فينبغى

أن يشجع شراء هذه الشقق بكل وسائل الاغراء ، انه أحسن اسفنجة تمتص الفائض فى الدخول .

ولتبدأ البنوك عندنا بمنح الفائز فى القرعة بين المدخرين لديها ملكية شقة فى مدينة نصر ، وأظن أن ثمنها لا يزيد كثيرا عن ثمن السيارات الخمس التى يفوز بها قراء « الجمهورية » .

(« التعاون » ، العدد ١٢٠ ، ١٩٦٥/٦/٦ ، ص ٨) .

فهـرس

الصفحة

الصفحة

مؤلفـات يحيى حقى

صـــدر منهـا :

١ ــ قنديل أم هاشم ــ مع سيرة ذاتية للمؤلف (نفد) .

٢ ــ فجر القصـــة المصرية ــ مع ٦ دراســـات من نفس المرحــلة .

٣ ــ فــكرة فابتســـامة .

٤ ــ صـــح النـــوم .

٥ ــ خطـــوات فى النقـــد .

٦ ــ دمعة فابتسامة ــ مع الدعابة فى المجتمع المصرى .

٧ ــ دماء وطين ــ مع قصص أخرى من الصعيد .

٨ ــ تعال معى الى الكونسير ــ مع الكاريكاتير فى موسيقى سيد درويش .

٩ ــ ناس فى الظل ــ مع شخصيات اخرى .

١٠ ــ أم العواجــز

١١ ــ حقيبة فى يد مسافر ــ ورحلات أخرى .

١٢ ــ عطر الأحباب ــ مع ٢٠ دراسة أخرى .

١٣ ــ عنتر وجوليبيت ــ مع ١٠ لوحات أخرى .

١٤ ـ يا ليل يا عين ـ سهراية مع الفنون الشعبية ـ مع مقالات السيرك والمولد .

١٥ ـ انشودة للبساطة ـ مقالات فى فن القصة .

١٦ ـ خليهـا على الله .

كتب لم يسبق نشرها :

١٧ ـ صفحات من تاريخ مصر .

١٨ ـ من فيض الكريم .

١٩ ـ الفراش الشاغر وقصص اخرى .

٢٠ ـ مدرسـة المسرح .

٢١ ـ همـوم ثقافيـة .

٢٢ ـ تـراب الميرى .

٢٣ ـ عشـق الكلمـة .

٢٤ ـ من باب العشـم .

٢٥ ـ فى السـينما .

٢٦ ـ هـذا الشـعر .

٢٧ ـ فى محراب الفن (موسيقى ـ تشكيل ـ عمارة) .

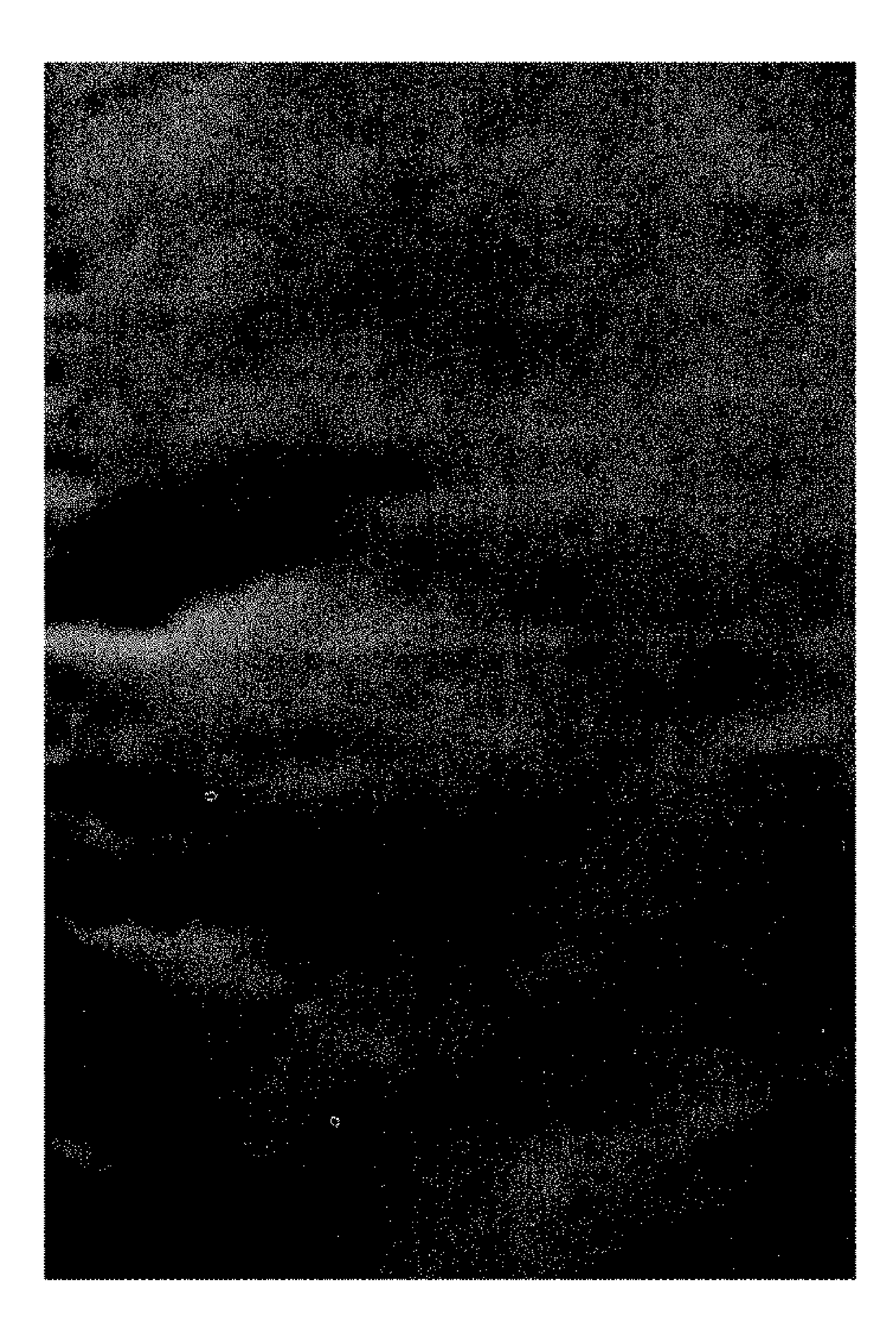
٢٨ ـ كناسـة الدكان .

رقم الايداع ٨٦/٤٥٨٢

الترقيم الدولى ٥ ـ ١٠٨٢ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب


الهيئة المصرية العامة للكتاب



« . . منذ تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ . . . وأنا أقرأ فى الصحف أخبار محاولات لإصلاح الأداة الحكومية . . . محاولات هى بمثابة نواة لتسند زيرا لايمكن أن يستقر إلا على دعائم ثابتة . . . ثم جاء تعاقب الأحزاب على الحكم وحشدهم لأنصارهم فى وظائف الحكومة ، وأصيبت مصر فى ذلك العهد بعدد محترم من النوابغ الذين تفتقت أذهانهم عن درر لم تكن إلا بمثابة قنابل زمنية وضعوها تحت شباك الحكومة . . . ثم تلاحقت بعد ذلك عوامل الانفجار التعليمى والسكانى وارتفاع الأسعار ، وانتفاع المواطنين بأمومة الدولة لهم ، فزاد ابتعاد نظام الوظائف عن الصورة التى ينبغى أن تكون له ليصبح جهازاً كفؤا قادرا على خدمة الوطن فى هذه المرحلة الحاسمة من حياته »

« أعوذ بالله أن أكون من سلالة النبغاء الذين تحدثت عنهم . . . ولكن هذه المسائل كلها تشغلنى لأنى أريد أن أغمض عينى وأفتحها فارى بلدى قد تخلص من كل العراقيل ووثب إلى الأمام ، فسأسمح لنفسى أن أفضفض ببعض الأفكار ، ولا أقول ببعض المقترحات ، لأنى واثق أن كا[illegible] لن تكون له نتيجة عملية . . . »

يحيى حقى

١٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية